










# حاوي الثورة المصرية

## دراسة أنثروبولوجية لظاهرة توفيق عكاشة

والتر أرمبرست

ترجمة: طارق عثمان

nama-center.com

حـــــاوي
الثورة المصرية



◆

# حاوي الثورة المصرية

## دراسة أنثروبولوجية لظاهرة توفيق عكاشة

والتر أرمبرست

ترجمة: طارق عثمان

مركز نماء للبحوث والدراسات
Namaa Center for Research and Studies

ري الثورة المصرية
راسة أنثروبولوجية لظاهرة توفيق عكاشة)
ر أرمبرست/ مؤلف، طارق عثمان/ مترجم من مصر


بعة الأولى، بيروت، ٢٠١٥م

**آراء التي يتضمنها هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة**
**وجهة نظر مركز نمـــاء».**

ز نماء للبحوث والدراسات
Nama Center for Research and S

**ت - لبنـــان**
ف: ٧٤٩٧٤٢ (٧١-٩٦١)

**لكة العربية السعودية - الرياض**
ف: ٩٦٦٥٤٥٠٣٣٣٧٦
س: ٩٦٦١٤٧٠٩١٨٩
.ب: ٢٣٠٨٢٥ الرياض ١١٣٢١

E-mail: info@nama-center.co

رسة أثناء النشر - إعداد مركز نماء للبحوث والدراسات
ان/ طارق
ي الثورة المصرية (دراسة أنثروبولوجية لظاهرة توفيق عكاشة)، طارق عثمان
١ ص. (ترجمات؛ ١)
غرافية: ١٢٥- ١٣٦
٢١,٥×١٤ سم
أنثروبولوجي. ٢. الثورات العربية. ٣. توفيق عكاشة. أ. العنوان. ب. السلسلة

ISBN: 978-614-431-839

# المحتويات

# مقدمة المترجم

«قدرة الدجال أو المشعوذ علىٰ تضليل الجماهير، أشد من قدرة العبقري علىٰ إنقاذها» (كوندورسيه)

## (١)

نُشرت هذه الدراسة في مجلة «الدراسات المقارنة في المجتمع والتاريخ»، التي تصدرها جامعة كامبردج، المجلد ٥٥، عدد ٤، أكتوبر ٢٠١٣، صفحة ٨٣٤-٨٦٤، بعنوان:

The Trickster in Egypt's January 25th Revolution

والتر أرمبرست، هو أستاذ مساعد لدراسات الشرق الأوسط الحديث، بكلية الدراسات الشرقية (كلية القديس أنطونيو) بجامعة أكسفورد بالمملكة المتحدة. حاصل علىٰ ماجستير في دراسات الشرق الأوسط، ثم ماجستير ودكتوراه في الأنثروبيولوجيا، كلها من

جامعة متشجين بالولايات المتحدة الأمريكية. تنصب اهتمامات أرمبرست البحثية في المقام الأول علىٰ موضوع الثقافة الجماهرية ووسائل الإعلام في الشرق الأوسط الحديث، خاصة في مصر. كما يهتم بدراسة الثورات. بالإضافة للدراسات الأنثروبيولوجية للمنطقة بوجه عام. ولأرمبرست عدد كبير من الأبحاث المنشورة منها:

الحلم بالثورة المضادة: «رامي الاعتصامي» وما قبل فض الاحتجاج (٢٠١٢)، أصحاب السمت الإسلامي والأماكن البرجوازية، من خلال فيلمين مصريين: «عمارة يعقوبيان»، و«أنا مش معاهم» (٢٠١٢)، سالي زهران: أيقونة الثورة (٢٠١٢)[١]. تاريخ وسائل الإعلام الجديدة في الدول العربية (٢٠١٢)، الأفلام السياسية في مصر المعاصرة (٢٠١١)، السينما والتليفزيون في العالم العربي (٢٠١١)، ما كان سيقوله سيد قطب: تأملات في كليبات الأغاني (٢٠١٠)، الإسلاميون في السينما المصرية (٢٠٠٢)، تأثير وسائل الإعلام علىٰ الموسيقىٰ المصرية (٢٠٠٢)، صعود وهبوط الفكر القومي في السينما المصرية (٢٠٠٢)، ولغز شهر رمضان: الإعلام وثقافة الاستهلاك و«تنصير» مناسبة إسلامية (٢٠٠٢).

كما صدر لأرمبرست في ١٩٩٦ كتاب: «الثقافة الجماهرية

---

(١) نُشرت مترجمة في مجلة فصول عدد ٨٠.

والحداثة في مصر»[1]. ويعمل راهنًا علىٰ كتاب بعنوان: «الثورة الرمزية: الثقافة والسياسة في مصر ما بعد مبارك»[2].

---

(١) وهو أطروحته للدكتوراه صدرت بالإنجليزية ١٩٩٦. وقد نشره المركز القومي للترجمة بالقاهرة بترجمة محمد الشرقاوي في ٢٠٠٠ عدد ٢٤٧، وأعادت مكتبة الأسرة نشره بنفس الترجمة بعد ذلك في ٢٠١٢.

(٢) سيصدر عن جامعة برنستون في ٢٠١٥.

## (٢)

موضوع هذه الدراسة هو توفيق عكاشة، ربما بادر البعض ليتساءل باستياء: هل يستحق الأمر حقًّا؟ «وحدها الأسئلة الساذجة هي الأسئلة الهامة فعلًا»، يقول كونديرا[١]، ربما كان السيد عكاشة بادي الرأي شخصًا سخيفًا ليس بأهل للانشغال به، ولكن غالبًا ما تكون السخافة قناعًا يخفي وراءه الكثير من الأشياء المهمة. نحن غالبًا ما نهتم بأشياء علينا ألا نأخذها علىٰ محمل الجد؛ لأنها خاوية ولا تستحق اهتمامنا في واقع الأمر، كذلك نحن نغفل أو نتغافل عن أشياء نراها سخيفة، في حين أنها لو حقق أمرها تتضمن ما يستحق صرف الانتباه إليه. الفكرة هي: لا ينبغي أن نحكم علىٰ الأشياء بحسب ما تبدو للحس العام وفقط[٢].

علىٰ أية حال، فإن أرمبرست قد قرر أن يأخذ عكاشة علىٰ محمل الجد، ولكنه لن يتعامل معه هنا كمجرد شخص وإنما كظاهرة عابرة للثقافات، وما تعنيه كلمة ظاهرة هنا يمكن بلورته في

(١) ميلان كونديرا، الروائي التشيكي، في روايته: كائن لا تُحتمل خفته. ترجمة ماري طوق، بيروت: المركز الثقافي العربي.

(٢) قارن بنظرية البجعة السوداء ونظرية أثر الفراشة.

الصيغة الاستفهامية التالية: كيف لشخص مغمور تمامًا أن يبزغ فجأة ويشتهر في بيئة سياسية ما، بحيث يتحول إلىٰ شخص مؤثر فيها، بالرغم من كونه لا يتمتع بالإمكانيات التي تؤهله للعب هذا الدور المؤثر؟ كيف قارب أرمبرست إذن هذه الظاهرة؟ لقد انتهج مقاربة أنثروبولوجية، يمكن أن ننسبها لحقل الأنثروبولوجيا السياسية[١]، حيث سيحاول أرمبرست أن يفهم عكاشة في إطار رؤية أوسع تتجاوز الشخص نفسه وتتعلق بالحالة الثورية عامة، فلكي نفهم عكاشة علينا أن نفهم الثورة المصرية ولكن من خلال مقاربة أنثروبولوجية تحديدًا. والحال، أنه في محاولة فهم وتفسير الثورات يتم التوسل غالبًا بمقاربات سياسية وسوسيولوجية، وذلك بالرغم من كون المقاربة الأنثروبولوجية تمتلك كثيرا من الإمكانات التفسيرية، وهذا ما سيسعىٰ أرمبرست لإثباته من خلال هذه الدراسة؛ حيث سيبين كيف أن هذه المقاربة يمكنها أن تفسر لنا ظاهرة توفيق عكاشة بدرجة أكبر من المقاربات السياسية أو السوسيولوجية.

---

(١) تمايزت الأنثروبولوجيا السياسية كفرع من الأنثروبولوجيا (علم الأناسة أو علم الإنسان) بعد ١٩٢٠، مع كتابات ماكلويد ولوي وفرايزر وبووا وغيرهم. وهي كتخصص علمي قريبة في موضوعها من علم الاجتماع السياسي؛ إذ تدرس بطريقة مقارنة طبيعة وصيرورة الحياة السياسية في المجتمعات، وكأنثروبولوجيا انصب اهتمامها أكثر علىٰ المجتمعات البدائية، والمجتمعات خارج النطاق الغربي. (راجع: جورج بالانديه، الأنتروبولوجيا السياسية).

إذن، تفسير أرمبرست لظاهرة عكاشة ينبني علىٰ المقاربة الأنثروبولوجية للثورة. سأحاول فيما يلي أن أوضح بقدر لائق من الاختزال المفاهيم الأنثروبولوجية التي تنهض عليها هذه المقاربة، بغرض تقريبها للقارئ غير المتخصص[١].

(١) لم يقم أرمبرست بشرح هذه المفاهيم في متن دراسته؛ وذلك لكونها منشورة في مجلة أنثروبولوجية متخصصة، ومن ثم فقارئها علىٰ دراية وافية بهذه المفاهيم الأولية.

## (٣)

# فان جينب

## وضعية المجاز أو العتبة (liminality)

الأصل اللاتيني لكلمة liminality[١] يحيل إلىٰ معاني: العتبة، والهامش أو الحافة، والحد. وهي معاني تشير إلىٰ وجود شيء بين شيئين: عتبة بين الشارع والبيت. حد يفصل بين دولتين أو بين حالتين مجتمعيتين أو نفسيتين أو جسديتين، أي أنها تشير إلىٰ وضعية بينية، وسيطة، انتقالية، وعابرة، أو قل إلىٰ حالة «بين-بين». انطلاقًا من هذا الحقل الدلالي يُستخدم هذا المصطلح في مستويين: عام وخاص؛ أما العام وهو الذي لا يتجاوز الوضع اللغوي للفظ فمن أمثلته: وصف الشفق أو الغسق بأنه liminality فهو حد أو عتبة بين الليل والنهار ولا ينتمي لأي منهما. كذلك توصف به المناطق الواقعة علىٰ الحدود الجغرافية للدول، فهي

(١) الأصل اللاتيني هو: Limen أو limes وكلاهما من الجذر .limus وlimen تعني بالإنجليزية threshold أي عتبة. بينما limes تحيل إلىٰ boundary أو limit أي حد.

عالقة بين دولتين علىٰ حافة كل منهما. أيضًا توصف به المطارات، حيث هي مجاز أو معبر من مكان لآخر، كذلك يمكن استخدام liminality لوصف مزدوجي الميول الجنسية bisexual أو المتحولين جنسيًا transgender أو مزدوجي الجنس intersexual؛ وذلك لكونهم في حالة بين-بين ليسوا ذكورًا تمامًا ولا إناثًا تمامًا، هم متذبذبون بين الذكورة والأنوثة. أيضًا ثمة استخدامات عامة أخرىٰ لا تعنينا في هذا السياق[(١)].

أما الاستخدام الخاص لهذا المصطلح فقد كان في حقل الأنثروبولوجيا[(٢)]، حيث يعتبر الأنثروبولوجي الفرنسي أرنولد فان جينب (١٨٧٣-١٩٧٥) هو أول من استخدم هذا المصطلح في ١٩٠٨ في كتابه طقوس العبور Rites of passage، فما هي الدلالة الإصطلاحية التي وهبها جنب لكلمة liminality؟

من المعلوم أن فان جنب هو من صك مصطلح طقس العبور rite of passage، ومن بعده صار مفهوما رئيسيا في الأنثروبولوجيا. والمقصود بهذا الضرب من الطقوس، هو

---

(١) كوصف أوضاع المهاجرين غير الشرعيين. ومن لا تأويهم دولة معينة، من لا يحملون جنسية معينة، وكوصف المكث في الفنادق والمطارات (كحال توم هانكس في The Terminal- سبيلبيرج ٢٠٠٤).الحالات المرضية التي يكون فيها الشخص بين الحياة والموت، مازال حيا لكنه لا يقوىٰ علىٰ القيام بما يقوم به الأحياء. وكعبادة الحج أيضًا.

(٢) استخدم بعد ذلك في حقول أخرىٰ كالسيكولوجيا والجغرافيا السياسية.

الممارسة الطقوسية[1] التي تصاحب لحظات التحول المجتمعي الرئيسية في حياة الشخص، حيث ينتقل من وضعية مجتمعية معينة لوضعية مجتمعية أخرىٰ مختلفة عنها كلية. مثل لحظات: الولادة، البلوغ، الزواج، الالتحاق بالخدمة العسكرية، التخرج من الجامعة، . . وأخيرا الموت.

يقسم فان جينب طقس العبور إلىٰ ثلاث مراحل متتابعة، بإنجازها يكون الطقس قد اكتمل:

الأولىٰ: الانفصال separation أو ما قبل العتبة/المجاز: وفيها ينفصل الشخص من الوضعية المجتمعية الأولىٰ (الطفولة- العزوبة- المدنية)

الثانية: وضعية المجاز أو العتبة liminality (وهذا هو الاستخدام الاصطلاحي الذي وهبه جنب للكلمة): وفيها يعلق الشخص في وضعية وسيطة بين المرحلة الأولىٰ والثالثة أي يكون بين-بين، حيث يكون قد انفصل تمامًا عن الوضعية المجتمعية الأولىٰ، ولكنه لم يدخل في الوضعية الثانية بعد، هو مازال واقفا علىٰ عتبتها/حافتها. (مرحلة الخطوبة ومرحلة المراهقة)

الثالثة: إعادة الإدماج reincorporation أو ما بعد العتبة:

---

(١) في المجتمعات البدائية في المقام الأول حيث أنها هي الحقل الرئيسي للبحث الأنثروبولوجي، ولكن في واقع الأمر هذه الطقوس تتجاوز المجتمع البدائي إلىٰ المجتمعات الحديثة وما بعد الحديثة، وإن لم تكن في صورتها الأصلية والتامة التي توجد عليها في المجتمعات البدائية.

وفيها يدخل الشخص في الوضعية المجتمعية الجديدة، ويعاد إدماجه في المجتمع وهو ذات جديدة كلية، تختلف عن الذات التي انفصل عنها (المعاملة كبالغ لا كطفل. أن يصير زوجًا. أن يصير جنديًا، أو أن يصير حاملًا لشهادة جامعية).

بحسب جنب يتم هذا الطقس وفق خطة واضحة ومحددة، ويكون ثمة قائد يدير الاحتفالات التي تصاحبه بدقة كبيرة.

هذا هو إذن المعنىٰ الخاص لمفهوم liminality؛ وضعية وسيطة بين وضعيتين مجتمعيتين ولا تنتمي لأي منهما، يكون الشخص منسلخًا فيها تمامًا من الوضعية الأولىٰ ولكنه لم يدخل بعد في الوضعية الثانية، فهو عالق في مجاز بينهما.

## (٤)

# فيكتور تيرنر

## الدراما الاجتماعية (social drama)، ووضعية ضد - البنية «anti-structure»

يعتبر الأنثروبولوجي الإنجليزي فيكتور تيرنر (١٩٢٠-١٩٨٣) أهم من اشتغل علىٰ مفهوم وضعية المجاز الذي صكه فان جينب. وتكمن طرافة ترنر هنا في قيامه بتوسيع نطاق عمل هذا المفهوم؛ حيث أنه لم يبقه محبوسًا في نطاق طقس العبور، وإنما حرره ليعمل في أفق المجتمع برمته، كيف ذلك؟ لكي يحلل تيرنر مظاهر الصراع والتوتر التي تعصف بمجتمع ما[١] صك مفهوم «الدراما الاجتماعية»، ليؤطر به صيرورة هذه التوترات. واستخدام لفظ دراما في هذا السياق غرضه التدليل علىٰ كون هذه الصيرورة لا تتم

(١) المجتمعات القبلية في المقام الأول، حيث أنها مجال عمل الأنثروبولوجيا عامة، ولكن يتم الانطلاق منها لتحليل المجتمعات الحديثة وما بعد الحديثة أيضًا. ولقد كانت دراسات تيرنر علىٰ قبايل الندامبو بزمبيا.

بطريقة خطية مستقيمة، وإنما هي أشبه بعمل درامي تقع فيه أحداث متنوعة، وتظهر فيه صفات مختلفة، ويتسم بالطابع الجدلي.

تمر هذه الصيرورة بحسب تيرنر بأربع مراحل متتالية:

١- التصدع breach: في هذه المرحلة يحدث شقاق بين الأطراف المجتمعية، ويبتعد كل منهم عن الأطراف الأخرىٰ، ومن ثم يوجد صدع أو خرق في بنية المجتمع.

٢- الأزمة crisis: في هذه المرحلة يتسع الصدع الذي تشكل في المرحلة الأولىٰ لحدود بعيدة بحيث يحدث انفصال تام بين هذه الأطراف.

٣- الإصلاح redressment: في هذه المرحلة تبدأ محاولات رأب الصدع، عن طريق التحكيم بين الأطراف التي حصل بينها شقاق، أوبتدخل الوسطاء للصلح بينهم، أو بإنصات أحد الأطراف للنصيحة من حكيم ما.

٤- إعادة الاندماج reintegration: في هذه المرحلة تُنجز عملة الصلح ويزول الشقاق بين مختلف الأطراف، وتلتئم بنية المجتمع مرة أخرىٰ.

لو تدبرنا في هذه المراحل الأربع سنجد أنها عبارة عن تطوير لمراحل طقس العبور الثلاث كما بلورها فان جينب؛ فالمرحلة الأولىٰ والثانية (التصدع والأزمة) يقابلان المرحلة الأولىٰ في طقس العبور (الانفصال أو ما قبل العتبة)، حيث يحدث فيهما انفصال

المجتمع عن بنيته ومعاييره الحاكمة في الوضع الطبيعي بحدوث الشقاق والتصدع والأزمة. بينما المرحلة الثالثة (الإصلاح) تقابل المرحلة الثانية في طقس العبور (المجاز أو العتبة) فهي مرحلة انتقالية وسيطة، حيث أن الانفصال عن البنية المجتمعية قد تم، بينما إعادة الاندماج في بنية مجتمعية جديدة لم يحدث بعد، وإنما المجتمع عالق في وضعية مجاز متخمة بمحاولات الصلح لمعالجة الأزمة. بينما المرحلة الرابعة (إعادة الاندماج) تقابل المرحلة الثالثة في طقس العبور والتي تحمل نفس الاسم، حيث يتم رأب الصدع وإدماج الأطراف المجتمعية مرة ثانية في بنية مجتمعية جديدة.

وعليه فإن وضعية المجاز في السياق المجتمعي تعني كما تعني في طقس العبور، انسلاخ المجتمع برمته من وضعية معينة، وعدم تلبسه بوضعية جديدة بعد، وإنما يظل عالقا في مجاز بينهما.

ركز تيرنر علىٰ مرحلة المجاز هذه في الدراما الاجتماعية، وصاغ مفهومين جديدين[1] للتعبير عن سمات رئيسة من سمات هذه

(١) يتسم ترنر بقدرته العنيفة علىٰ استحداث المفاهيم، إن نصوصه مثقلة بعدد ضخم من المفاهيم المبتكرة والمطورة. في نفس سياقنا هذا صك مصطلحا جديدا للتعبير عن وضعية المجاز كمرحلة من مراحل طقس العبور التي تتم في المجتمعات الحديثة وما بعد الحديثة وهو: .liminoid ويختلف هذا المفهوم عن liminality في أن وضعية الـ liminoid تكون اختيارية تمامًا وليس لها ميقات محدد، فهي ممارسة ترفيهية أساسا. ومن أمثلتها: حفلات التخرج، والحفلات الموسيقية خاصة حفلات الراب والهيب هوب (كحفلات إمنيم مثلًا)

المرحلة هما: «الجماعات المتساوية» communitas[1] ووضعية «ضد-البنية» anti-structure. يقصد تيرنر بالجماعات المتساوية الآتي: في وضعية المجاز لا يعود المجتمع مقسمًا إلىٰ طبقات هيراركية (تراتبية)، وإنما تزول كل الفوارق ويصبح الجميع سواسية تمامًا، بعدما تم الانفصال عن معايير وبنية المجتمع السائدة[2].
ويستخدم ترنر مفهوم «ضد-البنية» ليعبر عن هذه السمة في وضعية المجاز: هو لا يعني به قلب بنية المجتمع أو مضادتها، وإنما يقصد أنه في وضعية المجاز حيث يتحرر الجميع من المعايير والتقاليد التي كانت تحكم المجتمع، يحدث أيضًا تحرر لإرادات الأفراد ولإمكاناتهم الخيرة، وقدراتهم الإبداعية والخلاقة، ومن ثم يرتجىٰ منهم القدرة علىٰ تأسيس وتطوير المجتمع بعد الخروج من وضعية المجاز. وكذلك تتحرر أيضًا إمكاناتهم الشريرة، ومن ثم يخشىٰ منهم أن يطيحوا بالمجتمع في هوة سحيقة بدلًا من إنقاذه.

هذه هي إذن مساهمة فيكتور تيرنر في تحليل طقس العبور وتطبيقه لمفهوم وضعية المجاز علىٰ المجتمع برمته، ولكن ثمة ملاحظة جديرة بالذكر في هذا السياق قد أكد عليها تيرنر: في طقس العبور تكون الممارسة الطقوسية مدارة بدقة في كل مراحلها بواسطة سيد الاحتفال، ولكن عندما يكون المجتمع برمته في وضعية المجاز، تغيب هذه الإدارة، ومن ثم تتسم هذه المرحلة في

(١) وهي لفظة لاتينية وليست إنجليزية.

(٢) مثلما يحدث في عبادة الحج مثلًا.

سياق مجتمعي بالفوضوية والخطورة، بعكس السياق الطقوسي لها. وبالتالي ينبغي السعي لإنهائها بسرعة. وفي حال طالت هذه المرحلة يحدث ما يسمىٰ بـ: أزمة مجاز liminal crisis، وهو مفهوم يعبر عن وضعية مجاز أو قل ضد بنية قد طال أمدها عن المعتاد، ومن ثم تحدث أزمة بسبب حالة الانفلات من المعايير وغياب أية خبرة مجتمعية للتعامل مع هذه الوضعية.

هذا وقد حظي تراث تيرنر الأنثروبولوجي بقدر من الاهتمام سواء بالنقد أو بالإحياء والتطوير؛ نظرا لأهمية تحليلاته عن طقس العبور والدراما الاجتماعية. وسيعتمد أرمبرست في هذه الدراسة علىٰ كتابات تيرنر وسيهتم بالسجال الدائر حولها راهنًا بين التلاميذ والنقاد.

## (٥)

## الحاوي أو المحتال «the trickster»

ليس المقصود من هذا المفهوم مطلق صفتي الاحتيال والمخادعة، واللتين يمكن أن يتصف بهما أي شخص، وإنما هو يحيل إلىٰ شخصية مفهومية بعينها[١]. إنها شخصية ثقافية يعز أن تغيب عن أية ثقافة، فهي عابرة للثقافات، نجد حكاياتها في الأساطير اليونانية كما في فولكلور الشعوب المختلفة وتراثها الأدبي، وفي بعض الأديان كذلك. فما هي سمة شخصية الحاوي وخصيصتها؟ تختلف سمات هذه الشخصية من ثقافة لأخرىٰ، كل ثقافة تضفي طابعها الخاص علىٰ شخصية الحاوي فيها؛ فهي في الأسطورة اليونانية تختلف عنها في فلكلور قبائل الهنود الحمر، أو عنها في التراث الأدبي العربي. ولكن هذا لم يحل دون تجريد

(١) الحاوي هنا «شخص مفهومي» بتعبير جيل دولوز. ولذلك آثرنا ترجمتها بالحاوي وليس المحتال؛ فالمضمون المفهومي في الحاوي أعلىٰ منه في المحتال. وإن كان لفظ الحاوي لا يفي بدلالة المفهوم الإنجليزي كاملة غير منقوصة، ولكن لم أجد من يقترح علي أفضل منه.

بعض السمات الأساسية لهذه الشخصية، والتي لا تتغير بتغير الأفق الثقافي الموجوده فيه، لعل أهمها هو الآتي:

- الدهاء والمكر والمخاتلة، هي شخصية قادرة علىٰ خداع الآخرين باقتدار، ومن ثم لا يمكن الوثوق بها علىٰ الإطلاق.
- شخصية مثيرة للضحك، ومحط للسخرية.
- شخصية بلا بيت، هي تعيش علىٰ حدود المجتمع وفي مفترق الطرق.
- القدرة علىٰ التنكر والتمويه.
- شخصية غير أخلاقية بالمرة، لا تلتزم بأية قيم أو معايير مجتمعية.
- شخصية مؤذية تتسم بالعنف الاجتماعي والرغبة في الانتقام.
- شخصية مختالة ومغرورة كثيرة الزهو بنفسها.
- شخصية مزدوجة: ليست شرا خالصًا ولا خيرا خالصا.

فالحاوي يمكنه أن يغير من شكله، من حيوان لإنسان والعكس (في بعض الثقافات). شخصية متوحدة واجتماعية في آن. أيضًا تبدو ذكية جدا أحيانا ولكن تبدو أيضًا حمقاء وسخيفة في أحيان أخرىٰ. وعليه فهي شخصية يغلب عليها الغموض والتناقض الشديد، يصعب تصنيفها أو وضعها في نمط معين. وتعتبر سمة الازدواج والغموض هذه، أهم سمة في شخصية الحاوي.

هذه هي أبرز سمات شخصية الحاوي، والتي قلنا أنها تختلف بدرجة أو بأخرىٰ بحسب السياق الثقافي لها. ويمكننا أن ننمذج عليها بشخصية هيرمس وبرومثيوس في الميثولوجيا الإغريقية. أو بكثير من الشخصيات في الفلكلور الأمريكي والتي يكثر التعبير عنها في أدب القصص المصورة، مثل: شخصية الجوكر، ولوكي، والأرنب برير، والذئب البري (القيوط) أو شخصية روبن هود في الفلكلور الإنجليزي. أو بشخصية جحا (أو نصر الدين جحا) الموجودة في الفلكلور العربي والتركي والفارسي[1]. فجحا مثلًا شخص يثير الضحك بمواقفه المختلفة ولكنه شخص خطير في نفس الوقت. ثمة مواقف له تبديه في غاية الحمق والسخف، ولكن له أيضًا مواقف يخدع فيها الآخرين ويحتال عليهم بما يثبت كونه شخصًا ذكيًا جدًا. كذلك لا يمكنك أن تجزم بأن جحا شخص شرير أم خير. ومن ثم فهو شخصية ملتبسة وغامضة يصعب تصنيفها، أي أنها شخصية بين-بين.

وبعد، فما علاقة هذه الشخصية بحديثنا عن وضعية المجاز وطقوس العبور؟ ما هي علاقة جحا أو الجوكر بالمقاربة الأنثروبولوجية للثورات؟ وما علاقة توفيق عكاشة بكل هذه الأمور؟!

الحال أن شخصية الحاوي تحظىٰ باهتمام الدرس

---

(١) شخصية الحاوي أو المحتال هذه موجودة أيضًا في أدب المقامات العربية كمقامات بديع الزمان الهمذاني أو مقامات الحريري. وفيما يُعرف بأدب الشطار.

الأنثروبولوجي عندما يتعلق الأمر بتحليل وضعية المجاز أو العتبة، لماذا؟ لو تدبرنا سمات شخصية الحاوي المذكورة آنفًا، سنجدها أهلا لأن تجعله مثالًا علىٰ شخصية في وضعية مجاز liminal person أو threshold person؛ فهو شخص مذبذب، بين-بين، ملتبس وغامض لأبعد الحدود، يثير الضحك والسخرية ولكنه مقلق ومؤذ أيضًا. يبدو ذكيًا وداهية أحيانًا، وأحمق وسخيفًا في أحيان أخرىٰ. ليس بميسورنا أن نحكم عليه هل هو شخص شرير أم شخص ساذج وطيب من فرط خيريته؟ شخص يعيش علىٰ تخوم المجتمع وحوافه أو قل علىٰ عتبته. وبكلمة، هو شخص غامض لدرجة تجعل من إمكانية تصنيفه وتنميطه أمرًا شاقًا عسيرًا. أوليست هذه السمات هي عين سمات وضعية المجاز؟ حيث ينسلخ الأشخاص من وضعية مجتمعية معينة ولكن لا يدخلون في وضعية جديدة، بل يبقون عالقين في فراغ بينهما، هم أشخاص بين-بين إذن، لا إلىٰ هؤلاء ولا إلىٰ هؤلاء. فوضعية المجاز هي وضعية غموض والتباس ولا حسم بامتياز، وهذا عينه هو حال شخصية الحاوي أو المحتال.

والسؤال الذي يجابهنا الآن والذي جعل الدرس الأنثروبولوجي يهتم بشخصية الحاوي هو: ماذا يحدث لو قدر لحاوٍ أن يوجد في مجتمع عالق في وضعية مجاز؟ كيف سيكون أداؤه في هذه الوضعية؟ وما الأدوار التي يمكن له أن يلعبها؟ هل سيمثل خطورة أم لا؟ وكيف سيتعامل معه المجتمع؟

أسلفنا القول بأن وضعية المجاز في السياق المجتمعي

الأوسع من سياقها الطقوسي الذي أتت منه، هي وضعية انتقالية يفترض لها أن تكون مؤقتة وإلا دخل المجتمع في أزمة مريرة، وأنها تتسم بالخطورة والفوضىٰ والغموض واللا يقين والتشويش، حيث تغيب كل المعايير التي تضبط المجتمع. وعليه فإنها وضعية غير مريحة أبدًا لأفراد المجتمع وجماعاته، فهي بالنسبة لهم وضعية استثنائية وغير طبيعية بالمرة، ولكنها ليست كذلك أبدًا من وجهة نظر الحاوي؛ فالحاوي كما قلنا هو شخص متذبذب أو بين-بين بطبعه، أي أنه في وضعية المجاز علىٰ الدوام، هذه الوضعية هي الحالة الطبيعية بالنسبة له، ومن ثم عندما يعلق المجتمع في وضعية مجاز ويقابلها كل أفراد المجتمع باستياء وتخوف وتشوش، يقابلها هو بحبور وارتياح كبيرين، فهي بمثابة سكنه وبيته المحروم منه في الأوضاع الطبيعية. إنها بمثابة فرصة جليلة ليحقق فيها إمكاناته المختلفة.

هذا هو حال الحاوي في وضعية المجاز، فكيف هو أداؤه؟ لما كانت وضعية المجاز تتلائم تماما مع شخصية الحاوي، فهو سيسعىٰ بكل ما يملك لأن يطيل أمدها، ولكن كيف سيفعل ذلك؟ للجواب عن هذا السؤال لنتساءل أولا: ما معنىٰ القول بأن وضعية المجاز وضعية غموض والتباس؟ يعني ذلك ضمن ما يعني أنه ليس بميسورنا أن نقبض ببساطة علىٰ معنىٰ الأشياء، ثمة معنىٰ نعم،وموقنون أنه موجود ولكنه غير واضح ومشوش وملتبس، صعب الملتمس والدرك. ما يفعله الحاوي في واقع الأمر أنه

يحافظ علىٰ تشويش المعنىٰ والتباسه وغموضه، عن طريق أدائه الغامض والملتبس بدوره، إنه يخرق الحدود أجمعها: الحدود بين المعقول واللامعقول، بين الصحيح والخطأ، بين الشر والخير، ومن ثم يطيح بأي أمل في إدراك المعنىٰ والتماسه[1].

هذا هو أداء الحاوي في وضعية المجاز، فهل يشكل بأدائه هذا خطورة علىٰ المجتمع؟ لنتأمل في هذا الحال: أفراد المجتمع مشوشون تمامًا، الأمور ملتبسة عليهم بدرجة كبيرة، مستاؤون ومتوترون علىٰ الدوام، وإذا بشخص يخرج عليهم منفتح علىٰ هذا الوضع البئيس، نشط جدًا، ويملك خطابا ومقدرة علىٰ الحضور والمحاكاة. سيكون لهذا الشخص مقدرة عالية إذن علىٰ لفت أنظار أولئك المشوشين، (وهذا ما يحقق له الاشتهار السريع والمفاجئ) ربما سيلجؤون إليه في أول الأمر كشخصية هزلية مثيرة للضحك، ولكن في لحظة معينة قد يظنون أنه سيخلصهم من وضعية المجاز، وهنا مكمن خطر الحاوي؛ عندما يلجأ له الناس بغية الخلاص، سيوردهم المهالك بدلا من أن ينقذهم، سوف يزيدهم تشويشًا فوق تشويشهم، لأنه ببساطة لا يروم ولا يحسن سوىٰ صناعة التشويش

(١) هذه هو الأثر الواقعي لسلوك الحاوي وإن كان ظاهر خطابه يوحي بأنه يريد أن يضع حدا لوضعية المجاز. فالمتلقون لخطاب الحاوي يغترون بظاهره ظانين أن مؤداه هو إنهاء وضعية المجاز المقلقة لهم ومن ثم يلتفون حوله، مما يسهم في اشتهاره، ولكن واقع الأمر أن هذا الخطاب وعن طريق خرقه لكل الحدود، يعمل علىٰ إطالة وضعية المجاز وليس حسمها.

والالتباس، سيبحثون عنده عن المعنىٰ صعب الملتمس فلن يجدوا إلا العدم.

إذن، تعتبر وضعية المجاز بيئة ملائمة تمامًا للحاوي، إنها تتيح الفرصة له كي يخرج كل إمكاناته، التي يتوافر عليها بفضل ما يتسم به من صفات (خاصة صفة الازدواج). ومن ثم يمثل ظهور حاوٍ في سياق وضعية مجاز يمر بها المجتمع سببا أصليًا لبزوغ هذا الحاوي واشتهاره.

## (٦)

علىٰ أساس البنية المفاهيمية هذه تنهض واحدة من أهم المقاربات الأنثروبولوجية للثورات، وهي المقاربة التي تنظر إلىٰ الثورة بوصفها وضعية مجاز liminality يمر بها المجتمع[١]؛ حيث يمكننا فهم الثورة تمامًا كطقس العبور بمراحله الثلاث: الانفصال والعتبة وإعادة الاندماج: فثمة نظام سوسيو-سياسي كان يحكم المجتمع قد أسقطته الثورة ومن ثم «ينفصل» المجتمع عن كل المعايير والقواعد التي كان يفرضها هذا النظام. ثم يُفترض أن تقوم الثورة ببناء نظام سوسيو-سياسي جديد تماما لـ«يُعاد إدماج» المجتمع فيه مرة ثانية بدلا من النظام القديم الذي أسقطته. وبين هاتين المرحلتين توجد «وضعية مجاز» أو قل «ضد-بنية» حيث يكون المجتمع قد انفصل تمامًا عن النظام القديم ولكنه لم يدخل بعد في النظام الجديد، فهو في وضعية بين-بين لا ينتمي للنظام القديم ولا للجديد الذي لم يتشكل بعد، وإنما هو عالق في «مجاز» بينهما.

(١) يتم التعبير عن الثورة في هذه المقاربة بمفهوم revolutionary liminality أو المجاز الثوري.

إذن وضعية المجاز بحسب هذه المقاربة هي جزء من أي ثورة، والحال أنه كلما قصرت هذه المرحلة في صيرورة الثورة كلما كان أفضل، لماذا؟ لأننا تعلمنا مع تيرنر أنه إذا كان طقس العبور يتم إدارته بصرامة من قبل سيد الاحتفال ومن ثم تكون مخاطر وضعية المجاز مستوعبة، فإن الأمر يختلف تمامًا في الحالة الثورية؛ إذ تغيب هذه الإدارة فيصعب احتواء هذه المخاطر. ومن هنا كلما طال أمد وضعية المجاز كلما زاد الخطر ودخل المجتمع آنها فيما سماه تلامذة تيرنر أزمة مجاز liminal crisis. أي وضعية مجاز مفتوحة بلا نهاية أو ما يسمىٰ[(١)] limbo.

يفهم أرمبرست إذن الثورة المصرية من خلال هذه المقاربة الأنثروبولوجية؛ قامت ثورة ٢٥ يناير علىٰ نظام مبارك فأسقطته و«انفصل» المجتمع عنه، ومن ثم دخل المجتمع المصري في «وضعية مجاز» خالية من أي نظام سوسيو-سياسي. ولأسباب كثيرة عجزت الثورة المصرية عن «إعادة إدماج» المجتمع في نظام جديد يحل محل نظام مبارك. أي أن وضعية المجاز لم تنته بسرعة كما ينبغي لها أن تنتهي في الحالة الثورية الناجحة، وإنما قد طال أمدها

---

(١) كلمة Limbo تعني حرفيًا قيد الإهمال أو قيد النسيان. وفي المعجم اللاهوتي المسيحي تعني موت الرضيع قبل أن يتم تعميده. وقد استعار الفنان الإنجليزي كريستوفر نولان هذا المفهوم في عمله اللافت inception (زرع الأفكار) ٢٠٠٩ للتعبير عن حالة من اللاوعي التام قد يضيع فيها الحالمون في حلم عميق من طبقات متعددة.

حتىٰ دخل المجتمع المصري في «أزمة مجاز» مريرة، غير مسيطر عليها بالمرة، ويكأن هذا المجتمع قد ضاع إذن في الـlimbo.

ثم لكي يفهم أرمبرست ظاهرة توفيق عكاشة، ينظر إليه بوصفه «حاويًا» قد ظهر في قلب وضعية المجاز التي علقت فيها الثورة المصرية. وما يجادل أرمبرست عنه هو أن تمتع عكاشة بسمات شخصية الحاوي الثقافية هذه، ووجوده في أزمة المجاز، هو السبب الأساسي الكامن وراء بزوغه واشتهاره لهذه الدرجة اللافتة، وقدرته علىٰ تحقيق هذا القدر من التأثير في المشهد السياسي المصري، وليس أية أسباب أخرىٰ سياسية (كدعم المجلس العسكري أو المخابرات له). أو أسباب سوسيولوجية (كقرب خطابه من الطبقة الفقيرة والمتوسطة الدنيا من المجتمع المصري)[1].

سيجتهد أرمبرست في بيان كيفية تنزيل سمات شخصية الحاوي الثقافية علىٰ السيد عكاشة، بيد أنه علىٰ القارئ أن يبدي قدرًا من المرونة ولا ينتظر من أرمبرست أن يثبت أن عكاشة يتسم بنفس سمات شخصية الحاوي الجسدية والسلوكية كما نجدها حرفيًا في الأساطير والفولكلور، وإنما هو سيثبت أن عكاشة يتوافر علىٰ جوهر هذه السمات وبما يتلائم مع سياقه كرجل عادي يعمل في

(١) لا يعني هذا إهمال هذه الأسباب أو غيرها وتجريدها من كل أثر في تحقيق اشتهار عكاشة، ولكن المقصود أنها ليست الأسباب الرئيسية، علىٰ الأقل حال قورنت بأهمية المقاربة الأنثروبولوجية.

مجال الإعلام. بحيث يحق لنا أن نعتبره حاويًا. حاويًا قد ظهر في قلب وضعية المجاز فبزغ واشتهر.

هذه هي إذن أهم المفاهيم التي تنهض عليها هذه الدراسة، فلننظر كيف توسل بها أرمبرست لفهم ظاهرة توفيق عكاشة.

أما بعد، فبالرغم من تواضع العمل الذي قمت به، فإن قائمة من أدين لهم بالفضل في إنجازه طويلة في واقع الأمر؛ فأولًا؛ مدين أنا بالشكر للمؤلف البروفيسور والتر أرمبرست، علىٰ ما أبداه من سعة صدر في التواصل معي رغم ضيق وقته، وعلىٰ نظره في الترجمة وسماحه بنشرها كرمًا منه. ثم تثنية؛ أشكر الأستاذ الفاضل أحمد سالم. وثالثًا؛ مدين بالشكر للصديق أدهم عبد الباري، فهو من شجعني علىٰ ترجمة هذا النص منذ البدء، واقترح عليّ ترجمات موفقة لبعض مصطلحات الدراسة[1]، ثم راجع الدراسة وأبدىٰ الكثير من الملاحظات القيمة خلال نقاشاتنا المتكررة حولها. كذلك أشكر الصديق كريم محمد الذي نظر في الترجمة وأبدىٰ رضاه عن لغتها وأسلوبها. الشكر موصول أيضًا للصديقة المترجمة هند مسعد التي كانت حريصة علىٰ تقديم يد العون لي علىٰ الدوام. والصديق المترجم فهد حسنين الذي ساعدني كلما قصدته بالسؤال. أشكر أيضًا الصديق طارق حجي والصديقة أميرة محمد، كلاهما قد قرأ الترجمة وأبدىٰ لي الكثير من الملاحظات القيمة التي

---

(١) خاصة مفهوم وضعية المجاز.

استفدت منها بلا شك. كذلك أشكر الصديق والناشر أحمد عبد الفتاح حيث شجعني علىٰ نشر هذا العمل كثيرا. وأخيرا مدين بالشكر للدكتور سعد البازعي الذي لم يتوان عن مساعدتي في ترجمة ما أشكل عليّ من مصطلحات الدراسة[١].

(١) خاصةً مفهوم همهمة المعنىٰ أو صدىٰ المكنون.

# ترجمة الدراسة

# اعتراف بالجميل

أشكر مراجعي مجلة الدراسات المقارنة في المجتمع والتاريخ، الذين لا أعرفهم، علىٰ تعليقاتهم التي أفادتني حقا في إعادة النظر في هذا النص وتجويده. أيضًا مدين أنا بالشكر للوسي رايزوفا، لما قدمته لي من أفكار وتبصرات، أثناء نقاشاتنا حول أحداث الثورة المصرية في الفترة ٢٠١١-٢٠١٢، نسخة أولية من هذا النص، قد قدمتها في مؤتمر: الثورة المصرية في عام: الأسباب، السمات، والمصير. والذي نظمته ريم أبو الفضل، وعقد في جامعة أكسفورد في ١٨-١٩ مايو ٢٠١٢. أتقدم بالشكر لكل من شاركوا في المؤتمر علىٰ تعليقاتهم علىٰ مداخلتي التي مثلت مسعاي المبكر للكتابة في الموضوعات التي سأناقشها في هذه الدراسة.

«تعرض قناة الفراعين وجهات النظر التي تعبر عن «المواطن الشريف» فقط كما يتصوره العسكر؛ ذاك الذي لا يعنيه سوىٰ «الاستقرار»، تلك المقولة التي نهض عليها نظام مبارك، بكل ما يمثله من فساد، وتردٍ ثقافي. بكلمات أخرىٰ، ليس ثمة الغباء والجهل وفقط، وإنما أيضًا القدرة المذهلة علىٰ التغوط من الفم!»
(يوسف رخا -٢٠١٢)

«يرجىٰ اتخاذ الخطوات اللازمة لتوفير قادة في كل مستويات المؤسسة العسكرية: كبار الضباط وصغارهم والجنود؛ لتوجيه الجميع نحو متابعة قناة الفراعين؛ والتي تتسم برامجها بالحيادية والموضوعية، وأيضًا تضع مصلحة الدولة فوق كل اعتبار».
(يونس السيد المصري، جنرال بالقوات الجوية المصرية، بحسب وثيقة مسربة، حازم عبد العظيم- ٢٠١٢)

«إنني أحمّل جماعة الإخوان المسلمين والمجلس العسكري المسؤلية كاملة عن حياتي، في حال تم اغتيالي -وقد تم بالفعل طرح فكرة تصفيتي جسديًا- أو في حال تلفيق قضية لي للزج بي في السجن ظلما وزورًا».
(توفيق عكاشة متحدثًا علىٰ قناة الفراعين، بعد يوم واحد من إعلان فوز محمد مرسي بالانتخابات الرئاسية).

# مُقَدِّمَة

في أعقاب انهيار نظام مبارك، تصور معظم المراقبين للشأن المصري، أن زمام المبادرة لبناء نظام مجتمعي وسياسي جديدين سيكون مباشرة في يد النشطاء الشباب الديمقراطيين، الذين يُرجع لهم الفضل ابتداءً في إشعال فتيل الثورة. ولكن لاحقا قد بدا جليًا، أن الأمور لم تنته بمجرد سقوط النظام، وإنما ظلت مناهضة الثورة مستمرة؛ إذ تعدد المناهضون للقوىٰ الثورية (المفككة أصلًا وعلىٰ نحو متزايد)، فثمة: النظام القديم، و«الدولة العميقة»، وأحزاب الإسلام السياسي ذات الطابع الانتهازي، والمجلس الأعلىٰ للقوات المسلحة. وبناءً عليه كانت الحسابات المبكرة لأغلبية النشطاء الثوريين، تؤكد علىٰ أن من سيسيطر علىٰ المشهد السياسي هو كلُ من: القوىٰ الرجعية المدافعة عن الوضع القائم والمناهضة للتغيير الثوري، والحركات الإسلامية المنظمة جيدًا والمترسخة في بنية المجتمع منذ زمن.

والحال، أن تحديد من سيكون له الحق وحده في قيادة المشهد السياسي، لم يكن أبدًا شأنا مفروغا منه، سواء كان النشطاء الشباب غير المنظمين أو الحركات الإسلامية الأكثر

تنظيمًا، أو حتىٰ القوىٰ الرجعية المتمثلة في النظام القديم أو في المؤسسة العسكرية؛ فالثورات لا تفتح المجال فقط للصراعات السياسية، وإنما يمكنها بدلًا عن ذلك أن تنتج حالة «ضد-البنية»[١]؛ إذ يظهر فاعلون سياسيون جدد، وحيث تصير كل القوىٰ السياسية سواسية، تتاح لها نفس الإمكانات، وأيضًا تتشكل كيانات سياسية جديدة من خلفيات ثقافية متنوعة.

تروم هذه الدراسة تتبع بزوغ نجم «توفيق عكاشة»، مقدم أحد البرامج الحوارية، وبرلماني مغمور عن الحزب الوطني الديمقراطي الذي حكم مصر قبل الثورة. والذي أعاد تقديم نفسه خلال وضعية «ضد-البنية» التي سادت من بعد سقوط نظام مبارك، كشخصية إعلامية، وداعية لـ«تقديس» الجيش المصري. ثم أصبح المتحدث الرسمي باسم الثورة المضادة، وليصير في نهاية المطاف بمثابة قوة سياسية حقيقية.

والحال، أنه غالبًا ما يُنظر إلىٰ عكاشة علىٰ أنه مجرد «ذيل» للمجلس العسكري يتحرك علىٰ مسرح السياسة في مصر، ولكن بمكنتنا أن نفهمه بطريقة أفضل حال نظرنا إليه كـ«حاوٍ سياسي»[٢]، قد اشتهر في سياق «أزمة مجاز»[٣]، لا تتمثل وفقط في مجتمع عالق في وضعية «بين-بين» (تيرنر ٩٣: ١٩٦٧)، وإنما حيث ثمة

---

(١) Anti-structure.

(٢) Political trickster.

(٣) Liminal crisis.

خرق غير قابل للرتق في كل الممارسات الاجتماعية والسياسية اليومية.

هل يمثل عكاشة قوة ذات معنىٰ؟ قد يكون بالفعل وقد لا يكون، فليس من همي في هذه الدراسة أن أحسم هذا الأمر علىٰ وجه اليقين. ولكنه علىٰ صعيد آخر، يقدم نموذجًا واضحًا لإمكانات مفهوم «المجاز الثوري»[١] التحليلية، والذي لم ينل العناية الكافية في خضم السجالات حول مفاهيم الفعل أو البنية[٢]. أو أهمل أيضًا في سياق «مسرحة» المشهد الثوري، حيث يُنظر إليه بوصفه مسرحًا تتنافس علىٰ خشبته مختلف الأطراف السياسية.

سأنطلق في هذا العمل من كتابات فيكتور تيرنر حول «وضعية المجاز[٣]» أو العتبة، كمرحلة من مراحل ما يسميه بالعملية

(١) Revolutionary liminality

(٢) الفعل agent، والبنية structure: مفهومان محوريان في النظرية السوسيولوجية. ويمكن تقسيم النظريات السوسيولوجية إلىٰ ثلاثة أقسام انطلاقًا من ذينك المفهومين: نظريات الفعل: وهي التي تدرس المجتمع انطلاقًا من الفرد نفسه، الفرد هنا هو من يصنع الظاهرة المجتمعية، بوصفه ذات حرة وواعية تملك قرار الفعل. ونظريات البنية: وهي التي تدرس المجتمع انطلاقًا من البنىٰ المجتمعية، بوصفها مستقلة عن الأفراد. الفرد هنا ليس هو من يصنع الظاهرة المجتمعية، وإنما ثمة أطر بنيوية ثاوية في المجتمع هي التي تتحكم في سلوك الفرد. ونظريات تسعىٰ للجمع بين الاتجاهين: وهي التي تنظر إلىٰ فاعلية الفرد الحرة، وتأخذ أيضًا في الاعتبار القيود البنيوية التي يفرضها المجتمع عليه. (المترجم)

(٣) liminality.

الطقوسية[1]. وتتخذ هذه الوضعية مع تيرنر بعدًا اجتماعيًا؛ إذ تتضمن وجود قوىٰ اجتماعية غير مسيطر عليها بالمرة، تنشط في سياق التحول المجتمعي الذي يحدث أثناء ممارسة الطقس. بصورة طبيعية، مثل هذه التحولات يتم إدارتها بدقة شديدة؛ لأن وضعية المجاز هي بالضرورة وضعية قلقة وخطيرة. ومن ثم فالوجود الحقيقي أو الرمزي لسيد يقود الاحتفالات التي تصاحب الممارسة الطقوسية، هو عامل حاسم وضروري في هذه العملية.

لا يحتاج الأمر لمُخيّلة واسعة كي ما نبيح لأنفسنا قياس الثورات علىٰ هذه الوضعية الطقوسية، والتعامل معها كأحداث تحول مجتمعي. ولكن، لكي تصح عملية القياس هذه ينبغي أن يكون التحكم في مسار الثورة مشكوكا فيه علىٰ الأقل أو غائبًا تمامًا. هذا لا يعني القول بأن الثورات تحدث بمعزل عن الإرادة الواعية للفاعلين، ولكن، الفكرة هي: الثورات في جوهرها تتضمن بالضرورة لحظة لا يقين واختلاط للأمور، تتسم هذه اللحظة بقدر مذهل من السيولة. في حالة الثورة المصرية، هذه اللحظة قد دشنها سقوط نظام مبارك، ولكنها لم تنقضِ بسرعة وإنما لا تزال ممتدة حتىٰ عامها الثالث.

(١) سأوضح بعد ذلك بلورة تيرنر لمفهوم العملية الطقوسية، والتي اعتمد فيها علىٰ العمل المبكر لأرنولد فان جينب في أوائل القرن العشرين (٢٠٠٤ [١٩٠٩]) وكذلك بلورته التي أتت في كتابه غابة الرموز (١٩٦٧) وكتابه العملية الطقوسية (١٩٦٩)، وباقي أعماله التي توضح أفكاره حول العملية الطقوسية (علىٰ سبيل المثال: تيرنر: ١٩٦٨؛ ١٩٧٩؛ ١٩٨٠؛ ١٩٨٢؛ ١٩٨٦؛ ١٩٨٨)

بالإضافة إلىٰ ذلك، فإن تأويلي لظاهرة توفيق عكاشة، سوف ينبني علىٰ مفهوم «الحاوي»[١]. حيث تمثل وضعية المجاز فرصة عظيمة للحاوي، فهي بمثابة سكن ومأوىٰ له، إن الحاوي يعتبر داعمًا طبيعيًا لحالة ضد البنية، والتي تمثل السمة الجوهرية للمارسة الطقوسية.

في التقاليد السردية الممتدة من «بروميثيوس» في الأساطير الأغريقية، حتىٰ شخصية Wadjunkga في أساطير سكان أمريكا الأصليين (الهنود الحمر) كجماعة نيباغو[٢]، تمثل شخصية الحاوي محور الارتكاز في القصص التحذيرية التي تتحدث عن مخاطر وضعية المجاز غير الخاضعة لأية سيطرة. مثل هذه التقاليد السردية بمثابة حافظة نافعة تحتوي علىٰ كل المخاطر التي يمكن أن يتسبب فيها الحاوي.

إن بزوغ توفيق عكاشة يطرح علينا هذا التساؤل: ماذا يحدث حال وجود حاوٍ في سياق وضعية مجاز منفلتة تماما، دون حيازة تلك الحافظة السردية التي تُعلمنا كيف نحتوي احتمالات الخسارة، التي يمكن أن يتسبب فيها أولئك العالقون في وضعية البين-بين؟

(١) مفهوم الحاوي trickster، مفهوم متداول عالميا، ويُتناول في طيف واسع من الكتابات كالأنثروبيولوجيا، الفلكولور، والدراسات الأدبية (علىٰ سبيل المثال: كوبينج ١٩٨٥؛ مارزولف ٢٠٠٥؛ رادين ١٩٥٦؛ بيلتون ١٩٨٠).

(٢) باسمهم إلىٰ الآن مقاطعة في ولاية ويسكونسن الأمريكية. ولهم فلكلور خاص يعرف بأساطير النيباغو. (المترجم)

سأوضح فيما يلي استخدام مفهوم وضعية المجاز في تحليل الثورات، وسأقارنه باختصار بالنماذج الكلاسيكية لتفسير الثورات، الموضوعة من قبل التخصصات التي تهتم ببحث ظاهرة الثورة بما هي كذلك، أعني علمي الاجتماع والسياسة. ولكن قبل ذلك دعونا نتعرف باستزادة علىٰ توفيق عكاشة.

# توفيق عكاشة

توفيق يحيىٰ إبراهيم عكاشة، سياسي مغمور، من محافظة الدقهلية شمال شرق القاهرة. قبل الثورة، كان يشتغل صحافيًا تليفزيونيًا، عمل بالتليفزيون المصري في أوائل التسعينات، حيث كان يقدم برنامجًا سياسيًا يسمىٰ «أحزاب وبرلمان»، والذي كان يُذاع في ساعات الصباح الأولىٰ، حيث يعز وجود جمهور ليشاهده. في ٢٠٠٥ خاض عكاشة الانتخابات البرلمانية عن الحزب الوطني الديمقراطي، ولكنه مُني بالخسارة. في ٢٠٠٨ أطلق عكاشة قناته الفضائية الخاصة «الفراعين»، وراح يعيد تقديم نفسه كإعلامي (الإعلامي: هو من يعمل في الحقل الإعلامي، في التليفزيون تحديدًا، سواء أمام الكاميرا أو خلفها. ولكن في الغالب يستخدم الوصف بمعنىٰ الشخصية الإعلامية، وهي شخصية تتمتع بقدر من الشهرة والظهور، تقع في مكان ما علىٰ مقياس يمتد من مذيع الأخبار حتىٰ مقدم البرامج الترفيهية). والحال أن هذا الحضور الإعلامي قد أثمر جيدًا، ومهد السبيل لفوز عكاشة في الانتخابات البرلمانية لعام ٢٠١٠، في بلده نبروه بالدقهلية. تلك الانتخابات التي تم تزويرها بشكل مفضوح من قِبَلِ الحزب الوطني

الديمقراطي، والتي ساهمت بشكل كبير في تغذية الغضب الذي أنتج ثورة الخامس والعشرين من يناير. وبناءً عليه، لم ينعم عكاشة بكرسي البرلمان لفترة طويلة؛ فالبرلمان الذي انتُخب في نوفمبر ٢٠١٠، قام المجلس العسكري بحله في ١٢ فبراير ٢٠١١. بعد يوم واحد من تنحي مبارك عن السلطة.

قبل الثورة، كانت محطة عكاشة الفضائية بمثابة مشروع للزهو والحديث عن الذات، يروم منه دعم طموحاته السياسية الخائبة. وفيما بعد الثورة ما فتئ الرجل يدعي أنه كان علىٰ خلافات مريرة مع الحزب الوطني. والحق، أن مسألة صراعاته مع كبار قادة الحزب الحاكم هذه تتسم بالغموض والالتباس، وإن كان الجزء المتيقن منه، أن هيمنة الحزب الوطني التامة كانت تسوغ وجود الصراع علىٰ التحكم في الموارد وسياسات المحسوبية داخل الحزب نفسه، بدلًا عن وجود هذا الصراع بينه وبين باقي الأحزاب السياسية.

إن المحطات التليفزيونية العربية تزخر بعدد كبير من البرامج الحوارية (التوك شو)، ومقدمو هذه البرامج مثلهم مثل أندرسون كوبر المعلق في شبكة CNN، أو اليميني المحافظ جلين بيك، أو مذيع الأخبار الإنجليزي جون سنو، يتمتعون بضرب من الشهرة. ولكن التشابهات بين الشخصيات الإعلامية المصرية ونظرائهم الأجانب قد تخفي كثيرًا من التمايزات بين الاقتصاد السياسي للإعلام في الجانبين.

فيما يخص الفضائيات المصرية الخاصة، قبل الثورة كان جلها مملوكًا لرجال أعمال لهم صلة بدرجة أو بأخرىٰ بالسياسة، علىٰ سبيل المثال: أحمد بهجت (قنوات دريم)، و نجيب ساويرس (OTV وOn TV) وكلمة «خاصة» هنا لا تعني أبدًا الانعتاق التام من سلطة النظام الحاكم وتدخلاتها[1]. مع ذلك، وحتىٰ قبل الثورة، فإن قدرة الشخصيات الإعلامية (تحديدًا مقدمي البرامج الحوارية) علىٰ صناعة جمهور وأتباع لهم، جعل منهم «سلعًا» ذات قيمة تبادلية عالية في واقع الأمر. إن الوجود المتزايد لهذه البرامج كمنصات متنوعة للحوار في هذه المحطات، وبالرغم من كونها لا تتمتع بالاستقلال التام عن السلطة، قد جعل منها شيئًا هامًا؛ حيث أعطت لمقدميها درجة ما من درجات الحرية، ومنحتهم الفرصة للتشكيك والجدل أو حتىٰ في بعض الأحيان النقد الجذري

(١) عن الاقتصاد السياسي في الإعلام العربي بصورة عامة، انظر: صقر ٢٠٠٧، وعن حال الصحافة (خاصة التليفزيونية) فيما بعد الثورة انظر أيضًا: صقر ٢٠١٣.
(ناعومي صقر، بروفيسور بريطانية في جامعة ويستمنيستر، في شؤون الإعلام، ينصب اهتمامها علىٰ قضايا الإعلام في الشرق الأوسط، عملت في وحدة أبحاث الإيكينوميست وكاتبة عمود ومحللة فيها. من كتبها: العوالم الفضائية: التليفزيون العالمي، والعولمة، والشرق الأوسط (٢٠٠٣)، و التليفزيون العربي راهنا (٢٠٠٧). وحررت كتاب: النساء والإعلام في الشرق الأوسط: الاستقواء عبر التعبير عن الذات (٢٠٠٤) ومن أبحاثها المهمة: وسائل التواصل الاجتماعي، والبرامج الحوارية، والتغيير السياسي في مصر (٢٠١٣). والتحولات في الصحافة المصرية (٢٠١٣) (المترجم).

لسياسات النظام، حتىٰ مع القيود التي كانت تفرضها عليهم الرقابة في حقبة مبارك. إن تلك الشخصيات الإعلامية تمتلك رأس مال اجتماعيًا قابلًا للتسييل دومًا، إما في الأجور التي يتقاضونها (هذه نميمة وضرب من المبالغة!) أو عن طريق الإعلانات التي تجتذبها المحطات التي يعملون بها.

في حقبة مبارك، لم يكن من اليسير أن تحصل محطات الأخبار علىٰ تصاريح عمل، مما جعل من هؤلاء الإعلاميين مشاهير يحتكرون الكلام في السياسة من خلال برامجهم، والتي نجت من الحظر المفروض علىٰ شبكات الأخبار المتخصصة. فيما قبل الثورة كان توفيق عكاشة يقدم في محطته الفضائية برنامجًا سياسيًا اسمه «مصر اليوم»، لقد بدا عكاشة كسمكة بالغة الصغر حال مقارنته بالحيتان الكبار من أمثال هالة سرحان، ومحمود سعد، أو عمرو أديب.

فيما بعد الثورة، تزايدت أعداد المحطات الجديدة، بعدما رُفع الحظر المضروب عليها، وأيضًا استطاعات القوىٰ السياسية البعيدة عن مبارك ونظامه، أن تجد لها موطئ قدم في وسائل الإعلام، ربما كان بوسع المرء أن ينظر إلىٰ عكاشة في خضم هذا التمدد في ساحة البرامج الحوارية، كسمكة صغيرة في بركة مياه واسعة. ولكنه مع ذلك قد ازدهر تماما في بيئة ما بعد الثورة التي تتسم بالفوضىٰ المتزايدة، حتىٰ مع الخليط المذهل الذي يقدمه من: الهجمات الخبيثة علىٰ الثورة، والولاء الذي لا يتزعزع أبدًا للجيش

المصري، وعزفه علىٰ وتر نظرية المؤامرة، كيما يبرهن علىٰ كون الثورة ليست سوىٰ صنيعة عناصر أجنبية تروم تدمير مصر.

لقد قام عكاشة بتقديم باقة الأفكار هذه في لغة شعبية مصاغة بوضوح شديد، قادرة علىٰ جذب الريفيين والطبقة الوسطىٰ الدنيا. لقد كان الكثير ممن تحدثت إليهم مقتنعين بأن هذه التركيبة التي يقدمها عكاشة، مثمرة تمامًا في منحه مكانته الاستثنائية هذه[1]. أيضًا الكثير يعتقدون أن عكاشة يعمل مع الجيش والمخابرات، بل وعلاوة علىٰ ذلك يُنظر إليه كأحد الرؤوس التي دبرت لموقعة الجمل ذائعة الصيت، والتي اعتدىٰ فيها نظام مبارك علىٰ المتظاهرين في ميدان التحرير في ٢ فبراير ٢٠١١، بواسطة أعداد غير منظمة من البلطجية، وأفراد أمن. مثل هذه الادعاءات ليس بمكنتنا التحقق من صحتها بطبيعة الحال، ولكن نشاطات عكاشة السياسية بلا ريب تتجاوز حدود برنامجه التليفزيوني.

يكيل عكاشة في برنامجه المديح بسخاء لكل من الجيش والشرطة والقضاء، وفي الغالب لا يتضمن ذلك مدح أفراد بأعيانهم، لقد دعم عكاشة المشير حسين طنطاوي رئيس المجلس الأعلىٰ للقوات المسلحة بكل ما أوتي من قوة، حتىٰ لحظة الإعلان عن فوز محمد مرسي بالانتخابات الرئاسية في ٢٤ يونيو ٢٠١٢. ولكن بعدها، قام عكاشة بلمز طنطاوي واصفًا إياه بـ«خليفة

(١) لقد مكثت في مصر من أغسطس ٢٠١٠ لأغسطس ٢٠١٢، وسأوضح المزيد حول ظروف وجودي هناك فيما يلي.

عبد الحكيم عامر» (القائد العام للقوات المسلحة عندما هزمت مصر علىٰ يد إسرائيل في حرب يونيو ١٩٦٧). لقد أُتهم عكاشة آنذاك بأنه يحرض الضباط من ذوي الرتب الدنيا علىٰ الانقلاب علىٰ المجلس العسكري (حسن ٢٠١٢). وبما أن علاقة عكاشة بكل من المجلس العسكري ونظام مبارك المخلوع تتسم بقدر مريع من الغموض، فإن المراقبين راحوا يفسرون الأمر علىٰ أنه حيلة ماكرة من العسكر؛ فعن طريق انقلاب مزيف يتسلم صغار الضباط السلطة، والذين بدورهم سوف يجردون بالقوة جماعة الإخوان المسلمين منها.

# الـعــرض

لقد انتبهت لعكاشة لأول مرة، خلال مظاهرة للثورة المضادة بميدان العباسية، في ٢٣ ديسمبر ٢٠١١. والحال أن مظاهرات الثورة المضادة كانت تخرج علىٰ مدار العام، ولكن بلا أي تأثير يذكر. حتىٰ مع المظاهرات الحاشدة التي خرجت للتنديد بميدان التحرير في شهر نوفمبر ٢٠١١. والتي كان يطلق عليها من قبل منظميها (تحديدًا عكاشة) شعار «ثورة التصحيح»، كبديل عن شعار الثورة المضادة طبعًا[١]. لقد كانت مظاهرة العباسية، المظاهرة الوحيدة عبر السنتين اللتين أعقبتا سقوط نظام مبارك، التي خفت فيها علىٰ سلامتي كمراقب أجنبي، من المتظاهرين هذه المرة وليس من قوات الأمن[٢]. لقد كان الثالث والعشرين من ديسمبر يومًا

(١) هذه استعارة واضحة للحركة التي أطلق عليها أنور السادات ثورة التصحيح، في ١٥ مايو ١٩٧١، والتي رام منها القضاء علىٰ ما سماه مراكز القوة المتبقة من حقبة ناصر.

(٢) لقد حضرت عدد من المظاهرات في الفترة الممتدة من أغسطس ٢٠١٠ إلىٰ أغسطس ٢٠١٢. ولكني كنت أتجنب تلك التي يتم فيها تفريق المتظاهرين بالقوة؛ فقوات الأمن غالبًا ما تقبض علىٰ المراقبين الأجانب من هذه المظاهرات، ويتم استخدامهم من قبل النظام في حملات تشويه الثورة.

للتباري بالمظاهرات؛ تظاهرة عكاشة في العباسية، تقابلها جمعة «رد الشرف» بميدان التحرير. والتي كانت ردًا علىٰ فض قوات الأمن للاعتصام، وإهانتهم لسيدة ما[1]. أيضًا كانت جمعة «رد الشرف» بمثابة جزء من الحملة التي كانت تروم التوكيد علىٰ أهمية القوىٰ الثورية من غير الإسلاميين[2]، في أعقاب سيطرة الإخوان المسلمين علىٰ البرلمان. وبعد جولات من المعارك الضارية بين قوات الأمن والشباب الثوري غير المنتمي للإسلاميين[3]. في المقابل نظم عكاشة تظاهرته تحت شعار «جمعة العبور»، لتكريم الجيش المصري في استعارة تاريخية لنجاح الجيش في عبور خط بارليف في حرب أكتوبر ١٩٧٣.

(١) يشير أرمبرست لأحداث مجلس الوزراء ٢٠١١. حيث تم فض الاعتصام وقامت قوات الأمن بسحل سيدة وإهانتها. (المترجم)

(٢) أوثر تجنب اسم العلمانيين المثير للجدل. (المترجم)

(٣) غالبا ما يكون الشباب الذي يقاتل في الصفوف الأمامية مدفوعا بتصفية الحسابات (ومن منظوره الخاص) مع الأمن، وليست السياسة هي ما يحركه. عن الديناميكيات الاجتماعية للصدامات بين المتظاهرين وقوات الشرطة والجيش خلال نوفمبر وديسمبر ٢٠١١، انظر رايزوفا ٢٠١١. وعن علاقة الشباب المنحدرين من الطبقىٰ الوسطىٰ الدنيا وثورة يناير، انظر: أبو الغيط ٢٠١١.

(ورايزوفا هي د.لوسي رايزوفا، أستاذ مساعد بكلية التاريخ، جامعة أكسفورد، وهي متخصصة في تاريخ مصر الحديث بعامة، وتركز أبحاثها خاصة علىٰ ثقافة الطبقة الوسطىٰ، والثقافة الجماهرية، والتاريخ الاجتماعي للتصوير في مصر، وأنثروبولوجيا القراءة والكتابة في مصر. صدر لها في ٢٠١٤ كتاب: عصر الأفندية: استعمار مصر والعبور للحداثة.) (المترجم)

لقد اختير ميدان العباسية بالرغم من كونه ميدانًا صغيرًا ولا يصلح بالمرة لأن يكون مكانًا للتظاهر، فقط لكونه متاخمًا لوزارة الدفاع. إن الميدان الذي تشغله أدوات إنشاء مترو القاهرة، ويعج بالصخب والازدحام المروري، حيث يقع في قلب طريق عام وبه عدد من الكباري، يتسع بالكاد لألفي شخص، أو أكثر قليلًا حال كانت الشوارع الجانبية مكتظة. إن العديد ممن حضروا ثورة عكاشة التصحيحية هذه، هم رجال شرطة وجيش، قد جاءوا إلىٰ هناك بلباس مدني، وبصحبتهم أسرهم. أما الخطباء في هذا الحدث، فقد كالوا الوعيد والهجاء لكل من الولايات المتحدة وإسرائيل وأوروبا وإيران. لقد قيل أن هؤلاء أجمعين قد تحالفوا معا ضد مصر. أما أعداء الداخل فقد كان حظهم من تلك الخطابات هو تشويه السمعة. علىٰ سبيل المثال، متحدث ما راح يجعجع بالآتي: علاء الأسواني (الروائي والكاتب السياسي) قد أعلن أنه يؤيد محمد البرادعي رئيسًا لحكومة إنقاذ وطني، بعدها بساعة أعلن البرادعي قبول ذلك، ثم بعد ذلك بساعة إذ بفرنسا تأمر مصر بأن يتم التنازل عن الحكم فورًا لحكومة مدنية. والجموع خلفه تردد: باطل، باطل، باطل.

أما عن طبيعة المتظاهرين الذين حضروا حدث عكاشة هذا، فيمكننا أن نلحظ وجود عدد قليل من السيدات، والموجودون أغلبهم من الطبقات الدنيا، ومن مختلف الأعمار، ولكن أغلب الرجال في واقع الأمر كانوا في منتصف أعمارهم، لا وجود

للشباب ولا للتنوع الطبقي كما كنا نرىٰ في مظاهرات ميدان التحرير أيام ذروتها. أيضًا ثمة أشخاص لهم سمت إسلامي: رجال بلحية، ونساء يرتدين الحجاب أو النقاب.

لقد حظيت مظاهرة العباسية برعاية إعلامية من قبل السلطة؛ سيارات البث المباشر التابعة لتليفزيون الدولة كانت واقفة علىٰ مقربة من المكان، وفوق الكباري قد عُلقت اللافتات التي تحمل صور أربعة من مقدمي البرامج الحوارية المؤيدين للثورة، وهم في المشانق[1]. وفوق هذه الصور كُتبت العبارة التالية: «الشعب يريد إعدام الخونة والعملاء». هذا ولم يُسمح آنذاك للقنوات المؤيدة للثورة ولا المحطات الأجنبية أن تغطي مظاهرة العباسية، في آخر اليوم علمت أن طاقم الـ BBC قد تم طرده وتعنيفه عندما أراد أن يغطي المظاهرة. إن هذا التعامل الفظ مع الصحفيين الأجانب، يحمل مفارقة ساخرة في واقع الأمر؛ فالجموع التي تردد: «الجزيرة فين..الشعب المصري أهو». كما لو أن ثمة تآمرًا إعلاميًا عليهم يهدف للتعتيم علىٰ ثورتهم التصحيحية، هم أنفسهم من يجتهد في منع الصحفيين من التغطية! لقد نجحت في التقاط بعض الصور[2]،

---

(١) لقد كانوا زملاء عكاشة في المهنة الأكثر شهرة: يسري فودة وريم ماجد من أون تي في (آخر كلام، بلدنا بالمصري علىٰ التوالي)، وهالة سرحان (ناس بوك علىٰ روتانا مصرية، وغيره من البرامج الحوارية التي كانت تقدمها قبل الثورة) ومنىٰ الشاذلي (العاشرة مساءً علىٰ قناة دريم٢).

(٢) وضع المؤلف هنا أربع صور من تصويره: صورة للميدان أثناء التظاهر، وصورة =

وفي عودتي للميدان اعترضني تجمع من الناس حول حوار يجريه مراسل لقناة الحياة، والتي هي لسان حال الفلول بحسب الثوار هنا. بعد انتهاء الحوار مباشرة سمعت رجلا واقفًا بجواري يقول لصاحبه: «الناس اللي في التحرير دول مش بني آدمين».

كانت مظاهرة العباسية متناغمة بدرجة مفرطة حقًا، ثمة لوحات مكتوبة بخط اليد تحمل نفس الفكرة، ويكأن لجنة بعينها هي من وزعتها علىٰ الناس، كُتب علىٰ هذه اللوحات: «الشعب والشرطة والجيش يد واحدة». إنها كانت منشرة في كل مكان تقريبا. وبجوار اللافتات التي تحمل صور الإعلاميين المشنوقين، بميسور المرء أن يقرأ العبارة التالية: «الجيش، والشرطة، والقضاء[1]». وعلىٰ مداخل الميدان، ثلة من ذوي المظهر القاسي، يمسكون لوحات مكتوب عليها: «لسه فيه ناس مانزلتش الميادين»، «انتبه المصريون قادمون»، «مصر والمصريين أكبر من الأجندات الخارجية ومن التمويل». «نطلب إخلاء ميدان التحرير حالًا.»، «مصر فوق ميدان التحرير»، و«ثورة التصحيح».

أيضًا ثمة لوحة مكتوب عليها: «جمعة العبور. شعب

---

= للمتظاهرين وهم يحملون اللافتات، وصورتين للافتات التي تحمل صور الإعلاميين مشنوقين. فلزم التنبيه. (المترجم)

(١) السلطة القضائية أو رجال القضاء كما يروق لعكاشة أن يدعوهم، كانوا علىٰ الدوام تابعين للرئيس (علىٰ الرغم من مساعي تعزيز استقلال القضاء خلال التسعينيات. انظر: مصطفىٰ ٢٠٠٧).

المنوفية[1] يؤيد ويعلن ولاءه التام للقوات المسلحة والشرطة والقضاء. لا للتخريب. لا للعملاء. نموت وتحيا مصر». إن التناغم في هذه المظاهرة، ليس وهمًا علىٰ الإطلاق، فلقد فاضت كل اللوحات من نبع واحد بعينه: إنه برنامج عكاشة.

إن قنوات التليفزيون المصري وكل القنوات التابعة للدولة، لم تقم أبدًا بالتقاط صور للمظاهرة من زوايا واسعة من فوق الجسر المروري، وإنما هو فيديو ممنتج قد تم تصويره من وسط الزحام، وبث علىٰ فضائية عكاشة، كيما يعطي المشاهد انطباعًا بأن ثمة موجة ضخمة من المواطنين الذين يلوحون بعلم مصر بحماسة منقطعة النظير. في واحد من نسخ هذا الفيديو تم تركيب أغنية «صورة» لأيقونة الحقبة الناصرية عبد الحليم حافظ[2]:

صـــــــورة صـــــــورة صـــــــورة
كـــلـــنـــا كـــده عـــايـــزيـــن صـــورة
صـــورة لـــلـــشـــعـــب الـــفـــرحـــان
تـــحـــت الـــرايـــة الـــمـــنـــصـــورة

---

(١) المنوفية هي المحافظة التي ينحدر منها الرئيس مبارك، وقد كان ومازال الحزب الوطني يحظىٰ بحضور قوي جدا فيها.

(٢) انظر: http://www.sm3na.com/audio/fff39bd73f98
وهي من كلمات صلاح جاهين الشاعر المبجل لناصر. غُنيت لأول مرة في ٢٣ يوليو ١٩٦٦ في العيد السنوي الرابع عشر لثورة الضباط الأحرار. أيضًا الثوار في ميدان التحرير قد تغنوا بهذه الأغنية.

**يـــازمـــان صـــورنـــا يـــا زمـــان**

**هـــنـــقـــرب مـــن بـــعـــض كـــمـــان**

**والـــلـــي هـــيـــبـــعـــد عـــن الـــمـــيـــدان**

**عـــمـــره مـــا هـــيـــبـــان فـــي الـــصـــورة**[١]

في ميدان التحرير كانت هذه الأغنية تهدر من مكبرات الصوت بحماسة ثورية، بينما هي في العباسية كانت مجرد أداة دعاية فعالة[٢].

---

(١) يلاحظ أن آرمبرست قد تصرف قليلًا في الأغنية وقد ترجمناها كما هي مثبته في النص. (المترجم)

(٢) لفيديو لعكاشة محمولًا علىٰ الأعناق بين محبيه في مظاهرة العباسية انظر:

http://www.youtube.com/watch?v=s83nGrGgD4

والفيديو للتجمع في الميدان تم تصويره من فوق الجسر انظر:

http://www.youtube.comwatch?v=DoasDuStVIw

وللمزيد من صور عكاشة المأخوذة من برنامجة أو تلك الهزلية التي تحط من قدره، ببساطة ضع اسمه في أي محرك بحث وستجد الكثير منها.

# أزمة مجاز

بالإضافة إلىٰ كون حدث العباسية قد صُمم بعناية، فهو بمثابة شهادة علىٰ بزوغ نجم عكاشة، والذي لم يعد شخصًا هملًا مغمورًا مع نهايات العام ٢٠١١. لقد كنت في سبيل استكناه عكاشة أسأل عنه أناسًا من خلفيات طبقية متنوعة، وفي كل مرة كان يخيب أملي، فلا أحد يملك جوابًا واضحًا عن هذا السؤال: أي شخص هو توفيق عكاشة؟ ولكن بحلول يوليو ٢٠١٢، لم أعد بحاجة للاستقصاء عنه؛ لقد كان اسم عكاشة يُذكر أمامي علىٰ الدوام، لم أعد أحتاج بعد أن ألقن الناس إياه. قبل الثورة كان عكاشة شخصًا مجهولًا تقريبًا، حتىٰ في حيز البرامج الحوارية نفسه. أما عن بزوغه اللاحق، فلا أرىٰ أنه قد نتج عن مجرد دعم المجلس العسكري له: إن المجلس العسكري قد برهن مرارًا علىٰ أنه أخرق تمامًا إذا تعلق الأمر بالعلاقات العامة، فمنذ الثورة لم يفلح في إنجاز ولو مبادرة مجتمعية واحدة، وليس ثمة سبب يجعلنا نعتقد أن عكاشة بطريقة أو بأخرىٰ هو مجرد صنيعة للعسكر. بلا ريب هم قدموا له الدعم اللوجيستي، ولكن مهما تكن كمية الموارد التي وهبتها له أي قوة سياسية، فإن عكاشة وإلىٰ حد كبير قد صنع نفسه بنفسه، كيف حدث ذلك؟

للجواب علىٰ هذا السؤال، سوف أعيد طرح فكرة التعاطي مع الثورة بوصفها «أزمة مجاز» بشيء من التفصيل: قبل الثورة ومن منحىٰ عملي يمكن اعتبار عكاشة شخصًا فاشلًا تمامًا ورتبته دنيا في سلم المحسوبيات داخل الحزب الوطني، نعم تمكن بفضل ثرائه أو علاقاته من إطلاق محطة تليفزيونية، إلا أنه لا يزال ضائعًا وسط خليط من برامج المحطات الأخرىٰ الأكثر شهرة. ولكن في غضون سنة واحدة من بعد الثورة، هذا الرجل المغمور تمامًا قد أصبح علىٰ درجة من الشهرة توشك أن تكون عالمية! ما يترجح لدي، أن وضعية «ضد-البنية» التي تشكلت في «أزمة المجاز» هذه، هي السبب الرئيس في بزوغ عكاشة، إن تركيبته الثقافية لها فاعليتها حقًّا، ولكن فقط في ظرف بعينه: وضعية المجاز.

ومن المعلوم أن مفهوم «أزمة المجاز» واحد من سبل صياغة مقاربة أنثروبولوجية للثورة، والأنثروبولوجيا عامة قد تهتم بالبحث في أسباب الثورات، خاصة في سياق الدراسات الموسعة للحركات الاجتماعية[١].

ولكن هذا الاهتمام لا يكفي لصياغة مقاربة أنثروبولوجية

---

(١) انظر: إيلدمان ٢٠٠١، وناش ٢٠٠٤. والحركات الاجتماعية تُدرس ضمن واحد من فروع الأنثروبولوجيا المعاصرة، أعني الأنثروبولوجيا العامة (شيكر، فاين ووالي ٢٠١٠). والأنثروبولوجيون يولون عنايتهم في هذا السياق للحركات الاجتماعية الإسلاموية (انظر مراجعة نقدية لهذه الدراسات: ستاريت ٢٠١٠). ولا ريب في أن دراسة الحركات الإسلاموية تنير لنا الكثير من جوانب الثورة المصرية.

كاملة للثورة[1]. إن التخصصين اللذين يركزان علىٰ دراسة الثورة بما هي كذلك، أعني علم السياسة وعلم الاجتماع، يميزان المقاربات البنيوية عن مقاربات الفعل، وهذه الأخيرة هي التي تأخذ في اعتبارها الأفعال المحتملة للفاعلين المجتمعيين بوصفهم ذوي إراة حرة، خاصة في وضعية الثورة، ومن ثم هي تتعالق بدرجة ما مع مفهوم «أزمة المجاز»[2]. إن الكتابات الأنثروبولوجية، خاصة تلك المتعلقة بحركات المقاومة والحركات الاجتماعية، يمكنها أن تتساوق مع الاتجاهات السوسيولوجية حال استوعبت الأخيرة

---

(١) لقد اشتغل توماسين علىٰ نفس الفكرة (٢٠١٢: ٦٧٩-٨٣) وجادل بأن الأنثروبولوجيين لديهم كتابات كلاسيكية عن حركات التمرد والحركات الثورية، ولكنها كتابات تركز علىٰ سياق وخلفيات الفعل الثوري، وليس علىٰ الثورة بما هي كذلك (نفسه: ٦٨١)، وهذا ما يطلق عليه كاتن: «أنثروبولجية الأحداث» (١٩٩٩) وهي الفكرة التي يمكن توسلها في دراسة الثورات. وقد ناقش كاتن هذا الموضوع في حلقة نقاش عقدتها الجمعية الأمريكية للأنثروبولوجيا تناولت الثورات العربية في ٢٠١١، وقد أكد آنها أن الدراسات المتخصصة في أنثروبولوجية الأحداث ما زالت محدودة (نفسه: ٦-٩)

(٢) مفهوم الاحتمالية في الكتابات السوسيولوجية عن الثورات يعبر عن نظريات الفعل وليس عن البنية (انظر: سلبين ١٩٩٧ لبيان نظرية الفعل في الثورات. أما عن البنية فانظر ويكام-كرولي ١٩٩٧) والحال أن السجال حول قيمة النظرتين في العلوم الاجتماعية له تاريخ طويل (لمشاركات هامة انظر: بورديو ١٩٧٧، وجيدنز ١٩٨٤). وفي الكتاب الذي حرره فوران ١٩٧٧، نجد الفصل الذي كتبه سلبين والأخر الذي كتبه كرولي يقسمان بوضوح التحليلات السوسيولوجية إلىٰ بنيوية ولتلك التي ترتكز علىٰ دور الثقافة والفعل الحر.

العامل الثقافي في عدتها التحليلية. وذلك بالرغم من كون الأسس الفلسفية الوضعية التي ينهض عليها علم الاجتماع تتنافر مع طبيعة الدرس الأنثروبولوجي[1].

بحسب المزاج الوضعي لعلم الاجتماع، فإن بزوغ عكاشة ما في وضعية ثورية، هو أمر مفاجئ تمامًا، وذلك بسبب افتقارنا للمعلومات التجريبية التي تمكننا من التنبؤ به. أما الأنثروبولوجيون فهم وعلىٰ النقيض من ذلك، قد ذهبوا إلىٰ أبعد من مجرد مضادة الوضعية[2]؛ لقد قاموا بالتعامل مع فكرة الاحتمالية بوصفها ظاهرة

---

(١) حتىٰ أكثر المتخصصين في علم الاجتماع السياسي تركيزًا علىٰ فكرة الاحتمالية، يجعلون أهداف تحليلاتهم وضعية تمامًا، إنهم يرومون الكشف عن النظام السببي الذي يشرط العملية السياسية (تيلي وجودن: ٢٠٠٦-٦). لقد وسم سويل مقاربة تيللي للسياسة في أعماله المبكرة بالآتي: «التمدن كغائية خطية»، تلك المقاربة التي أخفت كتابه العمدة خلف حجاب مقولة تعميم المنهج العلمي الوضعي المُساء فهمها (سويل ٢٠٠٥: ٩١). والحال، أن فكرة تعميم العلمية الوضعية ظلت ثاوية في تآليف تيللي السياسية ولم تبرحها قط. لقد لاحظ نوركس (٢٠٠٧) أن تيللي نفسه قد سمىٰ مقاربته بـ«الميكانيزم» أو «آلية العمل»، حيث يتم تقسيم الواقع الاجتماعي إلىٰ وحدات تسمىٰ حلقات (نفسه: ١٦٧) ومن ثم تكون ممهة عالم الاجتماع هي تحليل هذه الحلقات إلىٰ عمليات ومكيانيزم هذه العمليات. والميكانيزم في هذا السياق تُعرف بأنها: «مجموعة محددة من الأحداث، قادرة علىٰ تغيير العلاقات بين عدد معين من العناصر بطريقة تكون متطابقة تمامًا أو تكاد، في مختلف الوضعيات التي توجد فيها هذه العناصر». (نوركس ٢٠٠٧: ١٦٧، ماكآدم، تارو، وتيللي ٢٠٠١: ٢٤).

(٢) علىٰ سبيل المثال: تأثير فيلهلم ديلتاي علىٰ سوسيولوجيا الفهم لدىٰ فيبر وسيمل وعلىٰ فرانز بووا. وحديثًا مع فوكو وإسهاماته الأنثروبولوجية.

اجتماعية بذاتها (وليست بوصفها مجرد تنوعات محتملة في السلوك السياسي) كما أنهم تخلوا عن النظرة الضيقة للسياسة باعتبارها مجالًا تم تجريده من الواقع المجتمعي. إنهم أيضًا لا ينشغلون بالتفتيش عن القوانين السببية الكونية والمطردة، التي يتقصد العلم الوضعي الكشف عنها. إن فكرة التنبؤ ليست ذات بال أصلًا في هذا السياق؛ فوضعية «ضد البنية» في كتابات فيكتور تيرنر (والتي تمثل تعبيره الخاص عن وضعية المجاز) هي غير قابلة للتوقع بالضرورة، في الحالة الطبيعية عدم القدرة علىٰ التنبؤ هذه يتم تأطيرها اجتماعيًا ومن ثم احتواؤها. بينما في حالة الثورة لا يحدث هذا الاحتواء، حتىٰ توجد سبل جديدة يتم بها إنهاء وضعية المجاز تمامًا[١].

---

(١) قد يجد القارئ غير المتخصص ضربًا من الصعوبة في هذا الجزء من الدراسة. فأرمبرست هنا يود أن يقارن بين المقاربة الأنثروبولوجية للثورة (تحديدًا مقاربة المجاز الثوري) والمقاربة السوسيولوجية. وبحسب أرمبرست فإن جوهر الفرق يتمثل في الآتي: المنهج السوسيولوجي هو منهج وضعي في المقام الأول، أي أنه يعتمد اعتمادًا صارمًا علىٰ الحس والتجريب في فهم الظواهر الاجتماعية، بحثًا عن القوانين المطردة التي تنظم عمل هذه الظواهر. (وذلك كمحاولة لتحقيق دقة العلوم الطبيعية عند دراسة الظواهر الإنسانية) هذه المنهجية لا تعطينا فرصة جيدة للتعامل مع ظاهرة كظاهرة عكاشة؛ وذلك لأنه ليس بميسورنا أن نقف علىٰ عدد من الأسباب التجريبية التي ينتج عنها مثل هذه الظاهرة، وبالتالي لا يمكننا أن نجرد قانونا مطرّدا، بحيث نقول إن توافر هذه الأسباب بعينها سيؤدي حتمًا لبزوغ عكاشة. ومن ثم كانت المقاربة السوسيولوجية غير قادرة علىٰ التنبؤ ببزوغ عكاشة. بينما الأنثروبولوجيا وعلىٰ النقيض من ذلك لا تنتهج منهجًا وضعيًا تجريبيًا، ولا تتغيا البحث عن قوانين سببية مطردة تنتظم فيها كل =

إن كتابات تيرنر عن وضعية المجاز تنسجم بدرجة ما مع الكتاباتِ الأخرىٰ التي تركز علىٰ دراسة الحالات التي تسود فيها وضعية البين-بين، مثل: الرؤية الباختينية للكرنفال(1)، نظرية الحدود(2)، نظرية الشذوذ/

= الظواهر. وعليه فإن المقاربة الأنثروبولوجية لا تتعامل مع فكرة احتمال حدوث شيء ما بنوع من التذمر وضيق الصدر، وذلك علىٰ عكس المقاربة السوسيولوجية التي تؤرقها فكرة الاحتمالية، وذلك لأنها تريد أن تضبط كل شيء في صورة قوانين سببية صارمة. إن المقاربة الأنثروبولوجية لا تشغلها فكرة التنبؤ أصلا، إنها تتعامل بقدر كبير من الانفتاح علىٰ كل احتمال، فهي غير معنية بضبط الأمور في صورة قوانين تجريبية صارمة. من هنا كان الاختلاف بين المقاربة الأنثروبولوجية والسوسيولوجية يزيد في حالة السوسيولوجيا البنيوية، ويقل هذا الاختلاف بدرجة ما في حالة سوسيولوجيا الفعل، حيث أن الأخيرة تراعي العوامل الثقافية المختلفة والأدوار التي يلعبها الفاعلين في المجتمع، مما يجعلها أكثر انفتاحًا علىٰ الاحتمالية من سوسيولوجيا البنية. (المترجم)

(1) نسبة إلىٰ ميخائيل باختين (١٨٩٥-١٩٧٥) الناقد الأدبي وفيلسوف اللغة الروسي الكبير. وباختين ينظر للكرنفال، بوصفه وضعية مجتمعية خاصة، يذوب فيها الفرد في المجموع وتتلاشىٰ الفوارق والرتب المجتمعية (تماما كما في وضعية المجاز). رأي باختين في الكرنفال نمط حياة مؤقتا خارج النطاق الذي تفرضه السلطة، الكرنفال هنا بفوضويته وسخريته ضرب من ضروب مقاومة السلطة. (المترجم)

(2) نظرية الحدود، حقل معرفي حديث، نشأ في البدء لمناقشة مختلف القضايا السياسية، الاقتصادية، المجتمعية، والثقافية لمنطقة الحدود الأمريكية-المكسيكية. وهو حقل عابر للتخصصات، تتشارك فيه الدراسات السوسيولوجية مع الأنثروبولوجية والإثنية والأدبية ودراسات الهجرة وأنماطها، ودراسات الشتات. ودراسات الجندر. ومن رواد هذا الحقل: جلوريا أنزلدوا، ريناتو ريزالدو، هيكتور كالدرون. مع الوقت اتسع =

الكوير[1]، نظرية الأداء[2]، والمقاربات ما بعد الكولونيالية للهجنة، والازدواج الوجداني والاختلاف[3]. ولكني اخترت أن

---

= مجال النظرية ليشمل موضوعات تتجاوز مسألة الحدود الجغرافية، إلىٰ أية موضوعات يمكن أن تتضمن بداخلها حدودًا وفواصل: مثل الحدود بين العمل والأسرة، الحدود بين الإثنيات المختلفة، الحدود بين الجنسين، ووجه انسجام النظرية مع وضعية المجاز، أنها تدرس أوضاع من هم عالقين بين ثقافتين ومجتمعين أي في وضعية البين-بين. (المترجم)

(١) Queer theory: تعرب كما هي نظرية الكوير، كما في دراسات الكوير، أو تترجم بنظرية الشذوذ أو نظرية اللاأسوياء. هي مجموعة من النظريات ما بعد الحديثة في حقل الجنسانية (دراسات الشواذ جنسيا (LGBT) ودراسات الجندر، والدراسات النسوية)، استثمرت في بناء خطابها كل من الدراسات ما بعد الكوليانية والنقد ما بعد البنيوي، وتنهض علىٰ كتابات كل من فوكو، دولوز، جوديث باتلر. غياتري سبيفاك، وإيفا كوسوفيسكي. وهي نظرية تفكيكية في جوهرها، تروم نسف أية قيم ومعايير تحدد الهوية الجنسية للأفراد في المجتمع. ووجه العلاقة بينها وبين وضعية المجاز أنها تدرس أفرادا في وضعية جنسية بينية، لا هم ذكور ولا هم إناث: شاذ، سحاقية، مزدوج الجنس، أو خنثىٰ. (المترجم)

(٢) نظرية الأداء حقل أكاديمي حديث التشكل، ينشغل بدراسة كل ما يقوم به الإنسان ويقع تحت وسم أداء: أداء فني (دراما، مسرح، موسيقىٰ)، أداء رياضي، الأداء في المناسابات الاجتماعية والدينية المختلفة المصحوبة بممارسة طقوس معينة. هو إذن حقل عابر للتخصصات يتشابك فيه الأنثروبولجي مع الأدبي والجمالي والفني. من رواده فيكتور تيرنر وريتشارد شيشنر، ووالاس باكون. ووجه العلاقة بينها وبين وضعية المجاز، أنه في أثناء الممارسة الأدائية يكون الشخص في حالة بينية مؤقتة دخل إليها من حال مجتمعي معين وسيخرج منها لحال آخر. (المترجم)

(٣) لدينا هنا مصطلحات: نظرية ما بعد الكولونيالية/ما بعد الاستعمار، خطاب ما بعدالكولونيالية، أدب ما بعد الكولونيالية، ودراسات ما بعد الكولونيالية، وكلها =

أنطلق من كتابات تيرنر تحديدًا لسببين: الأول يتعلق بكونها تصرف اهتمامها إلىٰ الأحداث رأسا، ومن ثم هي أكثر التصاقا بموضوعنا. والثاني ينصرف إلىٰ كون أطروحات تيرنر قابلة للتطوير. إن تيرنر يعين المرء علىٰ تأطير مختلف أحجام الأحداث، من التفاعلات البسيطة جدا إلىٰ الأحداث المهولة والكارثية. ورغم أهمية تيرنر هذه، فقد أقصي منذ الثمانينيات[(١)]

---

= تحيل إلىٰ حقل دلالي واحد تقريبا. إنها نظرية نقدية تنتمي لأفق ما بعد الحداثة، انشغلت بنقد الخطاب المؤسس للإمبريالية الغربية، وبقضايا الشعوب التي عانت من هذه الإمبريالية. ينهض هذا النحو من الدراسات علىٰ أعمال ميشيل فوكو بدرجة أساسية. ومن أهم رواده الناقد الفلسطيني الأصل إدوارد سعيد، حيث يكاد ينظر لكتابه الاستشراق كمانيفيستو لهذا التقليد النقدي، وأيضًا فرانز فانون و الناقد الهندي هومي بابا. والتهجين والازدواج الوجداني من المفاهيم الرئيسة للخطاب ما بعد الكولونيالي: الازدواج الوجداني: مصطلح استعاره هومي بابا من علم النفس حيث استخدمه كارل يونج للتعبير عن ازدواج الشعور تجاه شخص ما: النفور منه والانجذاب له في آن. ووظفه في تحليل طبيعة العلاقة بين المستعمِر والمستعمَر. والهجنة أو التهجين هو مصطلح اشتغل عليه أيضًا هومي بابا، ليكشف عن طبيعة التفاعل بين ثقافة المستعمِر والمستعمَر، حيث يختلطان وينتج عنهما هجين غير نقي. وظاهر من المقصود من المصطلحين مدىٰ قربهما من مفهوم وضعية المجاز: فالحالة الشعورية للمستعمِر والمستعمَّر وكذلك ثقافتهما تقع في وضعية بين-بين. (المترجم)

(١) لقد اشتغل تيرنر في الخمسينات ضمن ما يُعرف بمدرسة مانشيستر للأنثروبولجيا، وقد عُرف تيرنر آنها بتركيزه علىٰ تفسير الصراع، وانخرط في عملية بناء مفاهيمة الثقافية والتي كانت سمة مميزة لعديد من التخصصات آنذاك. انصبت أبحاث تيرنر المبكرة علىٰ دراسة الطقوس في مجتمع الـ«نيدمباو» بزامبيا، وقد تمخضت هذه الأبحاث عن=

من التيار الرئيسي للأنثروبولوجيا، ولكن هذا لا يعني أنه قد تم تجاهله بالكلية (علىٰ سبيل المثال: غنام ٢٠٠١). والحال، إن جينالوجييّ التخصص الأنثروبولوجي يقللون من شأن إرث تيرنير العلمي، مبررين ذلك بكون الأخير يفرط في التأكيد علىٰ ضرورة استمرارية البنية المعيارية للمجتمع بمعزل عن نطاق الأحداث. وأنه بالرغم من كون وجهة النظر التي ترىٰ الثقافة بنية متماسكة، لم تندثر بعد، إلا أن تمسك تيرنر الصارم بها طوال رحلته العلمية يظل مشكلًا في واقع الأمر. فهاهو واحد من أهم نقاد تيرنر يقول:

«إن نموذج تيرنر للدراما الاجتماعية، نموذج قبلي (ترنسيندانتلي)، وفي نهاية المطاف هو نموذج لا تاريخي وأيضًا لا سياسي، .. لقد عجز أن يكتشف مضامين التنافس السياسي الثاوية في مقولة» القيم الراسخة «..» (فيبر ١٩٩٥: ٥٣٠).

أيضًا أورتنر (١٩٨٤: ٢٩-١٢٨) وكاتون (١٩٩٩: ٧) قد صنفا تيرنر علىٰ أنه ممثل للمدرسة الوظيفية[1]. ومع ذلك كله فإن

---

= إعادة صياغة وتوسيع لنظرية الطقوس الكلاسيكية. في كتابه العملية الطقوسية (١٩٦٩) صك مصطلح «الدراما الاجتماعية» كإطار تحليلي يروم منه فهم ديناميكيات التحول في المجتمع. في السبعينيات راح تيرنر ينشغل بدراسات الأداء والمسرح، وبالتالي وسع من نطاق اهتماماته متجاوزًا موضوعات أبحاثه المبكرة (تيرنر ١٩٩٧؛ ١٩٨٢؛ ١٩٨٨).

(١) الوظيفية واحدة من أكبر النظريات في علم الاجتماع، تعود إلىٰ أعمال السوسيولوجي الفرنسي الشهير إميل دوركايم. والنظرية الوظيفية تصرف اهتمامها للكشف عن =

إرث تيرنر قد أعيد النظر فيه بكثرة مؤخرا، وبطريقة مذهلة ظل يحمل وصمة الوظيفية التي ألصقت به. إن تيرنر يعد راهنا بنظر البعض واحدا من أهم المختصين بالأنثروبولوجيا السياسية[١]. لقد جادل توماسين وآخرون بأن كتابات تيرنر عن وضعية المجاز ومفهوم شخصية الحاوي المتعلق بها، تمتلك قدرات تفسيرية عالية في تحليل الثورات[٢]. والحال، أن أعمال توماسين عن

---

= الأسباب التي تحافظ علىٰ استمرارية استقرار المجتمع، وفي هذا السياق، تقوم بتقسيم المجتمع إلىٰ أنظمة أو وحدات (الأسرة، المدرسة، الدولة،..) وتنظر إلىٰ كل نظام من هذه الأنظمة بوصفه يقوم بوظيفة معينة، أي يلبي احتياجًا مجتمعيًا معينًا، وقيام هذه الأنظمة أجمعها بوظائفها هو ما ينتج حالة الاستقرر واستمرارها في المجتمع. والوظيفية عامة تقع ضمن نظريات البنية وليس نظريات الفعل، ومن ثم هي لا تولي كبير اهتمام لإرادة الفاعلين في تحليل الواقع المجتمعي، وإنما تركز علىٰ الأنساق والبنىٰ المجتمعية التي تعمل بصورة مستقلة عن الفاعلين. وقد تطورت الوظيفية بعد ذلك مع عالم الاجتماع الأمريكي تالكوت بارسونز ومقاربته التي تسمىٰ: الوظيفية البنائية، ومع ما يعرف بالوظيفية الجديدة. (المترجم)

(١) في نهاية المطاف، ربما كان الاختلاف مع تيرنر نابعًا من مواقفه السياسية بالدرجة الأولىٰ، إن الرجل كان معرضًا كلية عن الأحداث السياسية التي شهدها في الثمانينيات، يمكننا أن نتلمس ذلك مبطنًا في النقد الذي قدمه فيبر لأعمال تيرنر. ولكن هذا لا يقلل بحال من قيمة تحليلات تيرنر المعمقة للظاهرة السياسية بعامة. ينبغي أن نفصل إذن بين مواقفه وكتاباته.

(٢) انظر: المجلة الدولية للأنثروبولوجيا السياسيبة، المجلد الثاني، العدد الأول (٢٠٠٩) وهو عدد مخصص لموضوع وضعية المجاز وثقافات التغيير. وفيه نصوص لتوماسين وزاكولكزاي (Szakolczai). انظر أيضًا: هورفث وتوماسين ٢٠٠٨، وتوماسين ٢٠١٢.

أنثروبولوجيا الثورات، تنهض بصورة جوهرية علىٰ التطوير الذي أجراه تيرنر علىٰ تحليلات أرنولد فان جينب في بدايات القرن العشرين للعملية الطقوسية ذات المراحل الثلاث. ومن ثم فأفكار تيرنر هي حجر الزاوية في أنثروبولوجية الثورات التي قدمها توماسين. والحق إن كل الطقوس وليس طقس العبور وحده الذي ركز عليه جينب تتشكل من هذه المراحل الثلاث: الانفصال، ثم العتبة أو المجاز، وأخيرًا الاندماج (تيرنر ١٩٦٩: ٩٤).

لقد كان جينب شخصية مغمورة في شجرة النسب الأنثروبولجية إلىٰ أن قام تيرنر (وعلىٰ عكس القراءة التقليدية لأعماله) في الستينيات بتحريره من إسار الوظيفية الذي كان يكبله (توماسين ٢٠٠٩: ١٤)[1].

---

(١) إن وصم تيرنر بالوظيفية يبدو متهافتًا تمامًا في ضوء إعادة القراءة التي قدمتها المجلة الدولية للأنثروبولوجيا السياسية لأعمال تيرنر. فعلىٰ النقيض من التصور الذي يتبناه أورتنر عن تيرنر (وهو تأويل مغلوط ورائج لأعمال تيرنر، حيث يقدمه كوظيفي) نجد زاكولكزاي يقدم لنا إعادة تقييم للأسس الفلسفية التي تنهض عليها أعمال تيرنر (٢٠٠٩)، إن زاكولكزاي لا يضع تيرنر في مصاف التقليد العقلاني جنبًا إلىٰ جنب مع دوركايم، وإنما هو في المقابل ينسبه إلىٰ التقليد الذي يهتم بالتجربة الشخصية، تحديدًا ينسبه لنيتشه، وفلاسفة السياسية الذين مثل لهم نيتشه مصدر إلهام كميشيل فوكو وإريك فوجلن. أيضًا لقد لاحظ زاكولكزاي إن فان جينب وهو واحد من أهم الذين أثروا في تيرنر قد تم تهميشه عمدًا من قبل دوركايم وتلامذته (نفسه: ١٤٤)، ومما يؤكد إضافيًا سطحية تصنيف تيرنر كوظيفي، أننا لو أجلنا النظر في مختلف أعماله طوال مسيرته العلمية، سنجد أنها بأجمعها ضد دوركايم وليست معه بحال، فكيف إذًا نُسَمِّه بالوظيفي وهو من ظل يكتب ضد رائد الوظيفية ومؤسسها!

بالنسبة لهؤلاء المجددين لتراث تيرنر، فإن مقولة وضعية المجاز تمتلك قدرات تحليلية تتجاوز نطاق دراسة الطقوس؛ إنها تتسم بقدر عالٍ من المرونة في أكثر من منحىٰ: فمن حيث موضوعها هي تغطي من الفرد حتىٰ الحضارة. ومن حيث الراهنية فهي تصلح لمختلف الحقب، ومن حيث مجال اشتغالها فيمكن استخدامها في دراسة جزء من الفرد تماما كما في دراسة الدولة القومية (نفسه: ١٦).

في سياق الثورة المصرية، تشكلت وضعية المجاز في الفضاء السوسيو-سياسي كمرحلة وسيطة بين «الانفصال» من حقبة مبارك وبين «اندماج» من ثاروا (نظريا من ثار هو المجتمع المصري برمته) في نظام سوسيو-سياسي جديد. والحال، أن المقام في وضعية المجاز هذه قد طال في حالة الثورة المصرية؛ حيث أن المرحلة الثالثة من العملية والتي يسميها تيرنر الاندماج، وهي التي يتم فيها بناء معايير سوسيو-سياسية جديدة، لم تحدث. ومن ثم ظل المجتمع عالقا في مرحلة المجاز، هذه الحالة قد سماها توماسين ورفاقه ممن أحيوا تراث تيرنر: أزمة مجاز، والتي تعني بحسبهم: وضعية ضد-بنية، غير قابلة للاحتواء بسبب افتقارها لأية قواعد سياسية واجتماعية مألوفة.

## عـكـاشـة

## شخصية الحاوي

ما الذي يعنيه القول بأن عكاشة كان حاويًا؟ إن كلمة حاوٍ تحيل إلىٰ شخصية معينة وإلىٰ ضرب من الحكايات متنوع الأشكال، موجود في الثقافات القديمة والحديثة علىٰ حد السواء. والحاوي شخصيته ذات طبيعة متناقضة بشكل مذهل: فهو شخصية قوية وخطيرة ولكنه تافه وسخيف في نفس الوقت، ومن ثم بمكنته أن يتصرف في سياق وضعية المجاز بطريقة مبدعة أو مدمرة أيضًا. في مقدمة ترجمته الكلاسيكية لسلسة قصص «حاوي النيباغو»[(١)] يقول بول رادين[(٢)]:

«الحاوي هو شخص في الوقت عينه يبني ويدمر، يهب ويسلب. هو الذي يستغفل الآخرين لكنه أيضًا يستغفل نفسه علىٰ الدوام. هو لا يعزم بوعي علىٰ فعل أي

---

(١) نسبة لقبائل النيباغو من الهنود الحمر سكان أمريكا الأصليين. (المترجم)

(٢) بول رادين (١٨٨٣-١٩٥٩) أنثروبولوجي أمريكي يهودي من أصل روسي، تتلمذ علىٰ يد فرانز بووا. اهتم بالأساطير والفلكلور الخاص بالهنود الحمر. (المترجم)

شيء، وإنما فقط يتصرف تبعا لدوافعه ومثيراته التي لا يسيطر عليها بحال. هو لا ينشغل بمآل أفعاله، أهي خير أم شر؟ إنه لا يأخذ في اعتباره أية قيم أو أخلاق. فكلها تحت رحمة هواه وشهواته، إن أفعاله وأفعاله وحدها هي من يحدد القيم». (١٩٥٦: x١)

إن شخصية الحاوي المتحررة من القيم هذه، هي جزء من «هامش الفوضىٰ»[1] الموجود علىٰ حدود النظام المجتمعي الذي نحيا بفضله (بابكوك-إبرامز ١٩٧٥: ١٥٢). علىٰ أية حال، فإن مفهوم الحاوي هذا نادرًا ما نوقشت أهميته التحليلية في المجال السياسي، وأيضًا ثمة عدد محدود جدًا من الدراسات الأكاديمية التي افترضت وجود أزمة ما تفتقر لأية سبل واضحة لإنهاء وضعية المجاز فيها بسرعة.

لكي نفهم عكاشة كحاوٍ علينا أن نلقي نظرة أكثر قربًا علىٰ بداياته، تحديدًا علىٰ برنامجه التليفزيوني «مصر اليوم»، والذي من باب التضليل أن نطلق عليه برنامج حواري (توك شو)؛ حيث من النادر أن يكون ثمة ضيوف في هذا البرنامج، بينما الطبيعي فيه أن يسلخ عكاشة ما يربو علىٰ ثلاث ساعات في الحديث وحده. حيث يكيل الثناء للجيش المصري وشجاعته القتالية، ويلعن القوىٰ التي

---

(١) هامش الفوضىٰ المحتمل، مفهوم لباربارا بابكوك-إبرامز في دراستها: هامش الفوضىٰ المحتمل: إعادة النظر في الحاوي وحكاياته. المنشورة في مجلة معهد الفولكلور بجامعة إنديانا، المجلد ١١، عدد ٣، ١٩٧٥. (المترجم)

أسقطت نظام مبارك، لأنهم عملاء لدول أجنبية، لأمريكا وإسرائيل في المقام الأول، ولكنهم أيضًا متحالفون في إطار مؤامرة لم يسبق لها مثيل مع كل من: الاتحاد الأوربي، إيران، حماس، حزب الله، جنوب السودان، قطر، الشيوعيين، الإخوان المسلمين، حركة شباب السادس من إبريل، حركة كفاية، الجمعية الوطنية للتغير التابعة لمحمد البرادعي، جوجل، فيسبوك، الماسونين، واليهود.

فلنتدبر في دعوة عكاشة للنزول إلىٰ مظاهرة العباسية، والتي بُثت قبل الحدث بيومين في برنامجه آنف الذكر:

«مصر في خطر لا يمكن لأحد أن يتخيله. أجندات أجنبية، وأجندات عربية (قالها بمرارة) ... مصر: أعظم دولة في العالم. أعرق دولة في العالم. وشعبها أعرق شعوب العالم. وأذكىٰ شعب. وأقوىٰ شعب». الفيل أبو شنب« عايز يحكم مصر[1]». الفيل أبو شنب «مفكر إنه ممكن يعرف يشتري الشعب. هو بيصرف فلوسه، لكن الشعب المصري مستحيل يتباع. أنا بناشدكم باسم مصر، أن تحضروا لميدان العباسية يوم الجمعة بعد الصلاة. أنا جالي رسائل كتير تطلب مني دعوة الشيخ محمد حسان

(١) الفيل أبو شنب كناية عن قطر، وتحديدًا يقصد أميرها الشيخ جاسم بن حمد آل ثان. والحال، إن الزعم بأن ثمة تحالفًا متينًا بين إسرائيل وحكام قطر يمثل ثابت من ثوابت خطاب عكاشة السياسي.

عشان يصلي معانا في العباسية[1]، لذلك أنا بدعوه، وبأدعو كل شخص بيحب مصر للحضور إلىٰ ميدان العباسية، في هذا اليوم الذي أطلقنا عليه اسم «جمعة العبور»[2]. العبور! مصر! (ورفع يده وصوته في آن قائلًا) الجيش المصري العظيم ..! أصبح يهان علىٰ الفضائيات، في الأول قالوا إن المجلس العسكري حاجة والجيش حاجة تانية، وبعدين قالوا الجيش المصري كله. وبعدين هجموا علىٰ قوات الشرطة واتهموها بالتخريب والبلطجة والانسحاب من الشوارع. بيقولوا إن ده غير كافي لازم نخلص من الجيش. أهم حاجة الجيش، مش هنلاقي حد يحمينا بعد الجيش. دولة من غير جيش

---

(١) محمد إبراهيم حسان، داعية سلفي، حاصل علىٰ شهادة في الإعلام من جامعة القاهرة. ومثله مثل عكاشة يمكن قراءته كحاو. بحسب السيرة الذاتية المنشورة علىٰ موقع حسان الإلكتروني، هو قد حصل علىٰ شهادة عليا في الدراسات الإسلامية، من معهد لم يُذكر اسمه. بعد ذلك عمل إمامًا في المملكة السعودية لفترة من الزمن (تعريف ٢٠١٢). ينحدر حسان من قرية بمحافظة الدقهلية، علىٰ مقربة من بلد عكاشة. وحسان هو مالك ونجم قناة الرحمة الفضائية المحافِظة. (فيلد وهمام ٢٠٠٩). وقد اتهم بالمشاركة في تنظيم موقعة الجمل في ٢ فبراير ٢٠١١ (حسان ٢٠١٢).

(٢) نسبة إلىٰ عبور خط بارليف الذي قامت به القوات المصرية في حرب أكتوبر ١٩٧٣. هجوم القوات المصرية هذا علىٰ السد الإسرائيلي المنيع، يمثل لحظة فخر للجيش المصري، ثمة أفلام وصور يتم إذاعتها عن هذا الحدث بصورة دورية في المناسبات الوطنية.

وشرطة وسلطة قضائية ومؤسسات تبقىٰ مش دولة. اليسارين والشيوعيين الأفندية اللي ما بيؤمنوش بوجود الذات الإلهية بيقولوا لك عايزين نحرقها».

إن أسلوب عكاشة يتسم بالتكرار، ونبرة وإيقاع صوته ملائمان جدا للمشاهد الأمي أو نصف المتعلم:

«مصر تطلب مساعدة ولادها، يا ترىٰ ولادها هيقفوا جنبها؟! أنا متأكد زي ما أنا متأكد من وجود ربنا إنهم هيكونوا يوم الجمعة بالملايين مش بالآلاف، ومش مليونية مزيفة زي مليونيات التحرير. ملايين وملايين بإذن الله هيطلعوا في يوم العبور، يوم إكمال ثورة التصحيح، اليوم اللي الأمة دي وشعبها هيعبروا فيه للأمان، للحرية، لبناء حضارة القرن الواحد والعشرين!، حضارة مصر، اللي الشعب هيبنيها في القرن الواحد والعشرين بإذن الله».

خطاب عكاشة لمظاهرة العباسية بالنسبة للبعض مجرد خطاب سخيف ومضحك، والحال، أن ذلك طبيعي تماما؛ فشخصية الحاوي من سماتها أن تكون مضحكة، كما نص علىٰ ذلك بول رادن في دراسته الكلاسيكية عنها:

«كل ما يأتي به الحاوي من أفعال مخترق بالضحك والفكاهة والسخرية. ومع ذلك فإن رد فعل الجماهير في المجتمعات البدائية تجاه شخصه أو مآثره لا يكون الضحك وفقط وإنما ضحك مشوب بالرهبة. ليس ثمة

سبب يدعونا أن نعتقد أن سلوك الجماهير هذا سلوك ثانوي أو متخلف؛ ففي النهاية ليس بميسورنا أن نحدد بدقة هل هم يضحكون عليه وعلىٰ حيله التي يخدع بها الآخرين، أم يضحكون علىٰ الآثار التي يخلفها سلوكه وحركاته علىٰ ذواتهم». (رادين ١٩٥٦ : x)

ومن ثم فمن الطبيعي أن يكون عكاشة محط الكثير من السخرية. في فضائيته الفراعين يحرص رفاق عكاشة من المذيعين أن يشيروا إليه دوما وبطريقة مفعمة بالإعجاب بـ : «دكتور عكاشة»، بحسب السيرة الذاتية لعكاشة، المنشورة علىٰ موقع الحزب الذي أسسه بعد الثورة مع الراحل طلعت السادات (ابن أخ لأنور السادات)[١] فإن عكاشة متحصل علىٰ درجة الدكتوراه في إدارة المؤسسات الإعلامية من جامعة لاكفورد ببرادينتون بفلوريدا (توفيق عكاشة إبراهيم «عكاشة» ٢٠١٢). والحال أننا لو بحثنا علىٰ الإنترنت سنكتشف وكلنا خيبة أمل أنه ليس ثمة جامعة تحمل هذا الاسم علىٰ الإطلاق[٢]. في أول انتخابات برلمانية بعد الثورة،

---

(١) لقد استقال عكاشة بعد ذلك من الحزب، ومن ثم أزيلت سيرته الذاتية من علىٰ موقع الحزب. ولكنها ظلت محفوظة في أرشيف الإنترنت. (انظر:

http://archive.org/index.php

وادخل من الرابط المذكور في قائمة المراجع في نهاية الدراسة تحت اسم توفيق عكاشة إبراهيم «عكاشة» ٢٠١٢).

(٢) في واقع الأمر، مجرد حصول عكاشة علىٰ شهادة بكالريوس أمر مشكوك فيه. السيرة الذاتية لعكاشة تتسم بالغموض عند هذه النقطة، فقد ذكرت ببساطة أنه حاصل علىٰ =

ترشح عكاشة علىٰ مقعد في دائرة بمحافظة الدقهلية، ولقد ادعىٰ شانئوه آنذاك أنه قد حصل علىٰ تسعة أصوات لا غير في هذه المعركة الانتخابية.

أما عن الفيديوهات التي تتضمن كلام عكاشة السخيف والمثير للضحك فإنها تند تستعصىٰ علىٰ الحصر في واقع الأمر؛ في واحد منها، كان يتحدث عن المخطط الماسوني الذي سيتم تنفيذه في ١٣/١٣/٢٠١٣. وقام أحد المعدين في البرنامج بتنبيهه علىٰ هذا الخطأ المريع، لقد قضىٰ عكاشة ثلاث دقائق بعدها مرتبكا تماما وهو يحاول أن يشرح للجمهور بطريقة ملتوية وغريبة كيف أنه كان يقصد الليلة الثالثة عشر في سنة ٢٠١٣. وفي فيديو آخر أكثر اشتهارا، راح عكاشة يؤكد علىٰ أنه لا ينبغي أن يُسمح لمحمد البرادعي المدير العام السابق لوكالة الطاقة الذرية، وواحد من أهم الرموز السياسية في مصر بأن يترشح للرئاسة إلا إذا كان يملك جوابا حاسما عن السؤال التالي: هل المرأة الفلاحة «بتزغط» ذكر البط قبل ما تذهب به للسوق أم لا؟ وكيف تقوم بذلك؟ عليه أيضًا أن يكون علىٰ معرفة بسعر ذكر الأوز في سوق الثلاثاء والخميس. وأيضًا يلزمه أن يكون علىٰ دراية بسعر «ركنة» البقرة في السوق.

---

= بكالريوس خدمة اجتماعية، ولكن دونما تحديد للجامعة التي حصل منها علىٰ هذه الشهادة (توفيق ٢٠١٢). والحال، أن بعض المنتديات والمدونات علىٰ الإنترنت ادعت أن الرجل حاصل علىٰ دبلومة من مؤسسة مهنية ما، وأنه لم يطرق باب الجامعة قط.

بالنسبة للمثقفين الليبراليين المتحضرين، فإن أسلوب عكاشة في الكلام يتسم بالسخافة المطلقة،كذلك تعبيراته الجسدية لافتة للانتباه بدرجة كبيرة ومثيرة للضحك. والحال، إن شخصية الحاوي غالبًا ما تتسم بغرابة مريعة؛ علىٰ سبيل المثال في ضرب من ضروب هذه الشخصية في فلكلور سكان أمريكا الأصليين نجد أن الحاوي يمتلك أمعاءً طويلة تغطي جسده برمته، وقضيبه بطول هذه الأمعاء وملتف هو الآخر حول جسده الذي يستقر كيس الصفن علىٰ أعلاه! (رادين ١٩٥٦: x)

بلا شك لا يمكن أن نشاهد علىٰ التليفزيون صورة الحاوي الخيالية تلك، ولكن في المقابل يمكننا أن نشاهد هذه الغرائبية في صورة أكثر تلائمًا مع سياق عكاشة، وذلك من خلال سلوكياته الفريدة علىٰ الشاشة. علىٰ سبيل المثال، تقمص في مرة من المرات دور زعيم مافيا، واعتذر بكل لباقة عن تأخره علىٰ البرنامج في تلك الليلة، فـ«الدون عكاشة» كان عليه أن يقضي في أمر ثلة من المخربين المنتمين لحزب الثورة مستمرة (حزب أسسه الشباب بعد الثورة) والذين سولت لهم أنفسهم سرقة ملصقات ولافتات حملته الانتخابية في شوارع المنصورة، ثم حملق في الكاميرا وقال بصوت خفيض وبلهجة ملؤها التهديد والوعيد:

«أنا عايز أقولهم: إنتم زي ولادي، وإنتم جداد علىٰ موضوع الانتخابات ...ما تعملوش كده تاني، عشان فيه ناس صوروكم بالتليفونات، وصوركم دي عندنا، فلو

عملتم كده مرة تانيه، ممكن ... واحد هيعلقكم من رجليكم علىٰ كوبري طلخا، كلامي واضح!»

أنه غالبا ما يُتهم بالتحريض علىٰ العنف (ويُرفع ضده دعاوي قضائية بصورة مستمرة)، في لحظة تالية عكاشة سوف يبتسم بمكر كاشفًا عن أسنانه الأمامية المتباعده، وعن «نغزة» ذقنه. تلك الابتسامة اللطيفة والبشعة في آن، ستكون محطا لسخرية كبيرة من قبل شانئوه. إن يديه تتحركان دومًا مع لسانه كلما تكلم. إنه دائم الحركة بطريقة ملحوظة جدًا لا تناسب أبدًا مقدم برامج تلفزيونية. في واحد من الفديوهات المثيرة للسخرية والمتداولة بكثافة، سكت عكاشة فجأة في وسط الكلام، ثم أخرج منديلًا وتمخط عدة مرات بصوت مرتفع جدا علىٰ مرأىٰ ومسمع من الجمهور[(١)]، إنه نموذج واضح علىٰ تعبيرات عكاشة الجسدية علىٰ الشاشة المبالغ فيها بشدة[(٢)].

عكاشة ورفيقته في تقديم برنامج «مصر اليوم» وهي سيدة مثيرة في الأربعين من العمر تقريبًا يقال لها حياة الدرديري، غالبًا ما ينخرطان في مشهد عاطفي مصطنع كخاتمة لكل حلقة من البرنامج، حيث يشرحان كم المشاكل الاجتماعية التي تحدث لهما بسبب

---

(١) انظر: الأغنية ٢٠١١، مونتاج لسلوكيات عكاشة (للمثقفين والمتحضرين) تجد التمخط في آخر الفديو.

(٢) أداء عكاشة الغريب هذا يعبر عن سمات شخصية الحاوي بما يتناسب مع سياق عكاشة. وهو يظهر بجلاء الجانب الهزلي منها. (المترجم)

التزامهما الصارم بقول الحقيقة والحقيقة وحدها في هذا البرنامج. ويتحدثان عن حجم الأعباء البدنية والمالية التي يتكبدانها؛ حتىٰ تظل هذه المحطة تعمل رغما عن كل المؤمرات التي تحاك ضدها.

# رجل خطير

أنا لم أسع لمقابلة عكاشة قط، ببساطة لأنني ظننت أن فعل ذلك يعد أمرًا خطيرًا، علىٰ المرء أن يتحاشاه[1]. بداية من ديسمبر كرس عكاشة نفسه بطريقة مذهلة لتشويه المنظمات غير الحكومية الداعمة للديمقرطية وحقوق الإنسان في مصر والتي تُمول من قبل الولايات المتحدة. ولقد كان من ثمار الحملة الموجهة ضد هذه

(١) لقد مكثت في مصر في الفترة من أغسطس ٢٠١٠ إلىٰ أغسطس ٢٠١٢، متعاونا مع المركز الأمريكي للأبحاث بمصر، حيث كنت أجري أبحاثي علىٰ تاريخ الإعلام في مصر، لذلك لم أتمكن من إجراء حوارات رسمية تتعلق بالثورة، خاصة مع شخص مثل عكاشة، ومع ذلك فقد كنت منخرطا في دراسة المجال الإعلامي المعاصر في مصر خلال ٢٥ عاما تقريبا. ومن ثم لم يكن باستطاعتي أن أتجاهل تمامًا مجريات الأمور من حولي. والمركز الأمريكي للأبحاث بمصر، مؤسسة غير ربحية، تتعاون مع العديد من المؤسسات الجامعية والأكاديمين، تأسس في ١٩٤٨ بهدف مساعدة الباحثين الأمريكيين في الشأن المصري. هو أيضًا يحصل علىٰ منح متعلقة بالعلوم الاجتماعية والإنسانية، من قبل مؤسسات حكومية مثل المركز الوطني للدراسات الإنسانية. لعله كان علىٰ عكاشة حال أخطر بوجود هذا المركز، أن يحشر اسمه في قائمة المنظمات غير الحكومية الداعمة للديمقراطية في مصر، والتي سيغلقها المجلس العسكري فيما بعد!

المنظمات أن تم إصدار مذكرات اعتقال بحق ٤٣ شخصا من العاملين بها منهم ٢٠ أمريكيا[١].

لقد حظي برنامج عكاشة بيوم سعده بسبب هذه الأزمة؛ فها هو عكاشة وبكل مرح يعرض الوثائق التي أعطاها له الجيش الواحدة تلو الأخرىٰ، لكي يبرهن علىٰ كون هذه المنظمات المدعومة من أمريكا هي التي توجه الثورة منذ البداية. وربما كان بعض هذه الوثائق أصليا بالفعل، وعلىٰ سبيل المثال: في حلقة يوم ٢٦ ديسمبر من البرنامج، قام بعرض وثيقة أخذت أثناء الغارات الأمنية علىٰ هذه المنظمات، تحديدًا من مكتب منظمة «صندوق المدافعين عن حقوق الإنسان»، وهي منظمة غير حكومية إسرائيلية، تقدم المساعدات القانونية للفلسطينيين، وينحصر نطاق عملها في قطاع غزة والضفة الغربية والنقب[٢]. بعد ذلك راح عكاشة يتحدث بطريقة توهم بأنه سيثبت أن أحمد ماهر (أحد مؤسسي حركة شباب ٦ إبريل الثورية) يتلقىٰ أموالًا من هذه المنظمة، ثم قام مباشرة

(١) انظر: فهمي ٢٠١٢ لمناقشة نقدية تلخص بطريقة جيدة هذه الأزمة.

(٢) هذا ما ذكر علىٰ الموقع الإلكتروني للمؤسسة في منتصف ٢٠١٢.

(http://hrd.org.il/)

وفي ٢٠١٣ أصبح هذ الرابط لا يعمل، ولكن ثمة صفحة علىٰ الفيسبوك للجناح الإسرائيلي للمنظمة:

(https://www.facebook.com/HumanRightsDefendersFund.)

ويبدو منها أن المنظمة مرتبطة بمبادرة ما لوزارة الخارجية الأمريكية.

بعرض وثائق تخص منظمات يقينا هي تعمل في مصر فقط مثل: الصندوق الدولي للديمقراطية، ومبادرة الشراكة الأمريكية الشرق أوسطية، وهذه الأخيرة قد ادعىٰ عكاشة أنها تمول من قبل المخابرات المركزية (CIA).

ثم توقف مليًا أمام وثيقة تتحدث عن برامج التدريب بجامعة سيراكيز (Syracuse) التي تمولها هذه المنظمات، لقد نصت هذه الوثيقة علىٰ أنه من المفترض أن يكون المشاركون في برامج التدريب هذه يجيدون اللغة الإنجليزية. وهنا قال عكاشة بلهجة ملؤها الاحتقار: أن من شاركوا في هذه البرامج قد كذبوا بالضرورة بشأن إجادتهم للإنجليزية، ثم راح ينطق كلمة سيراكيز بطريقة مغلوطة تماما، حتىٰ بدا وكأنه يكافح لينطقها، وذلك لكي يثبت كونه شخصا لا يتحدث الإنجليزية (يتوسل عكاشة بهذا التكتيك علىٰ الدوام ليثبت أنه مصري صميم لا يتحدث سوىٰ لغته الأم، والمفارقة هنا أنه يدعي مع ذلك حصوله علىٰ دكتوراه من جامعة أمريكية!) بعد ذلك عاد عكاشة مرة ثانية لوثيقة صندوق المدافعين عن حقوق الإنسان، المتهمة بكونها تمول من قبل «الأيباك» (AIPAC) (لجنة الشؤون العامة الأمريكية الإسرائيلية)، الأيباك، التي قال عنها عكاشة «إنها تملك ٧٥٪ من أكبر مائة شركة في الولايات المتحدة». بعد ذلك قام الجيش بالإغارة علىٰ المنظمات غير الحكومية في شهر ديسمبر، والتي أصبحت بطريقة مريبة مرتبطة بكل من وكالة الاستخبارات المركزية، الإيباك، إسرائيل وحركة

شباب ٦ إبريل «وكله بالمستندات» كما يروق لعكاشة دومًا أن يقول وهو منتشٍ بنصره المظفر.

أما بعد، فإن طبيعة مهمتي في هذا البحث تحتاج الآن إلىٰ قدر ما من التوضيح؛ الحال أنني لم أقصد كتابة دراسة إثنوغرافية[١] تقليدية عن عكاشة، أي دراسة طويلة الأمد أجريها في ميدان بحثي محدد[٢]. ومعلوم أن فكرة الموقع الميداني[٣] محدد المكان والزمان وأن يتوفر للباحث قدر ما من العلاقات الاجتماعية فيه، قد أكل عليها الدهر وشرب، لقد تم استبدالها بأفكار أكثر إبداعًا، عن كيفية تواصل الناس بغض النظر عن المسافات بينهم، أو عن العلاقات الاجتماعية التي لا يمكن اختزال تحققها في مجرد حيز

---

(١) الإثنوغرافيا أو الأنثروبولوجيا الوصفية، فرع من فروع الأنثروبولوجيا، موضوعه هو دراسة الطبيعة الثقافية لجماعة بشرية معينة، أي نمط رؤية أفرادها للعالم، عاداتها، تقاليدها، وأعرافها. وتتوزع الدراسات الإثنوغرافية علىٰ مرحلتين: الأولىٰ وهي مرحلة البحث الميداني، حيث يتم جمع المعلومات بمناهج تجريبية/إمبريقية محددة وصارمة لتحقيق أكبر قدر ممكن من الموضوعية، أما المرحلة الثانية فتشمل تحليل المعلومات التي تم تجميعها من المرحلة الأولىٰ. (المترجم)

(٢) وصف تقليدي هنا لا أعني به أبدا نقد أولئك الذين يقومون بدراسات إثنوغرافية طويلة الأمد في مجال الإعلام بمصر أو في أي مكان آخر (علىٰ سبيل المثال: هيرشكند ٢٠٠٦؛ أبو لغد ٢٠٠٤). فمن الناحية الإجرائية البحتة، قد كان عكاشة علىٰ مدار العام ٢٠١٢ هدفًا سريع التحرك، ومن ثم كان من العسير إجراء دراسة ميدانية محددة عليه.

(٣) Field site.

مكاني محدد. (جوبتا وفيرجسون ١٩٩٧).

في ٢٠١٢ ربما تمكن المرء من تحديد «موقع عكاشة[1]»، علىٰ سبيل المثال في مدن الدلتا، حيث يفترض أنها مجال تأثيره الأهم. أو وعلىٰ النقيض في مجال لا يملك فيه أي تأثير، مثلًا بين مبغضيه من الإسلاميين حيث يحتقرون عكاشة تماما. أو بين المولعين شبه السريين بأفعال عكاشة، مثلًا بين فلول النظام القديم (تستخدم كلمة «فلول» للتعبير عن الازدراء ولكن في سياق سياسي حيث يصف المرء بها معارضيه، أكثر مما تستخدم كسبة اجتماعية).

أقول، بالرغم من إمكانية توافر المرء علىٰ موقع ميداني لدراسة عكاشة أنثروبولوجيا، إلا أن بزوغ الرجل كانت سرعته فظيعة لدرجة لا تتيح ملاحقته، إلا إذا حدث وصادف وجود المرء في الزمان والمكان المناسبين. إن لحظة أو لحظات عكاشة تنقضي بسرعة لا يمكن معها إجراء بحث ميداني تقليدي.

ولكن، والحق يقال، إن القيود التي فرضت علىٰ ظروف عملي لم تكن غير عادية، ولم تمثل بالضرورة عوائق غير قابلة للتجاوز؛ فالحال أن معظم الكتابات الأنثروبولوجية تعتمد بدرجة أو بأخرىٰ علىٰ التجريب والصدفة. أو أنها ببساطة يمكن أن تُنجز بطريقة جيدة بمعزل عن القيود التي تفرضها المنح الدراسية. والحق

---

(١) موقع هنا ذات بعد اصطلاحي أنثروبولجي، أي حيز ميداني يتوفر فيه ما يعين علىٰ تحقيق دراسة عن عكاشة. (المترجم)

الذي ينبغي أن يعلم، أن العمل من خلال وسيلة الموقع الميداني دوما «يمكننا من إدراك ضرب من المعرفة لكنه يحجب عنا ضروبًا أخرىٰ، يسمح بتحقق بعض الأهداف الدراسية ولكنه لا يسمح بأخرىٰ، يتيح الاستعانة ببعض مناهج التحليل ولكنه أيضًا يستبعد أخرىٰ». (نفسه: ٤)[1]. في حالتي، الظروف لم تسمح لي علىٰ الإطلاق بامتلاك موقع ميداني في العمق، خاصة في ظل الغارة علىٰ المنظمات غير الحكومة الأمريكية ونشاطاتها التدريبية والتمويلية، والتي لم تكن نيرانها قد هدأت بعد.

ولكن إذا كانت يدي قد غُلت عن امتلاك حقل ميداني في العمق، فإن ازدهار عكاشة وانتشاره المتزايد في كل مكان، قد

(١) إن التخوف من تلك القيود التي تفرضها المنح الدراسية ليس بالضرورة شأنا عالميا؛ إن حال الأنثروبولوجين المصريين يختلف كثيرا في هذا السياق عمن سواهم بلا شك، ولكن الأجانب أيضًا لا مفر لهم من تلك القيود؛ قارن مثلًا بين حال مارك بيتيرسون ودراسته: متصل بالقاهرة (٢٠١١)، والتي تنبني علىٰ ٥ سنوات من التدريس بالجامعة الأمريكية بالقاهرة، وبين حال ليزا واين ودراستها الممولة من المركز الأمريكي للأبحاث بالقاهرة: الأهرامات والنوادي الليلية (٢٠٠٧) وهي دراسة عن أنثروبولوجيا السياحة، لقد وصف كلاهما ظروف عملهما الميداني بكل دقة، إن بيترسون لم يأخذ في اعتباره مسألة التصريحات الحكومية علىٰ الإطلاق، بينما واين راحت تشرح معاناتها المريرة مع الشروط التي فرضتها كل من وزارة الداخلية ووزارة التعليم علىٰ مسار عملها. ولكنها عمليًا كانت لا تقيد نفسها بما هو مسموح لها رسميًا به. في الأخير، فإن ما كان يحكم الباحثين هي أخلاقيات التخصص بعيدًا عن القيود التي تفرضها الحكومة المصرية.

سمح لي بأن أجد لي مكانا داخل دائرة حضوره؛ فـ«عابدين» حيث كنت أعيش، منطقة متاخمة لوسط البلد، وتقع علىٰ مسافة عشر دقائق سيرا علىٰ الأقدام من ميدان التحرير، ومنطقة وسط البلد أقرب ما تكون إلىٰ مقاطعة بوهيمية[(١)] منفتحة يسهل الدخول والخروج منها، وبالرغم من كون وجود كثير من الناس فيها عابرا ومؤقتا، إلا أنها لا تزال بطريقة أو بأخرىٰ حيا كباقي الأحياء، حيث بوسع المرء أن يألف وجوه الناس ويتعرف عليها، وينشئ شبكة علاقات اجتماعية مع الجيران، وينخرط في الروتين اليومي المعتاد. والحال أننا في الفترة من ٢٠١٠ إلىٰ ٢٠١٢ لم نكن غرباء علىٰ هذه المنطقة؛ ففي ٢٠٠٩ كنا قد استأجرنا شقة بعابدين لتكون مكتبة لنا. وقبل ذلك في ٢٠٠٨ كنا قد اشترينا شقة تطل علىٰ ميدان التحرير رأسا، ولكنها كانت قيد الترميم أثناء مكثنا في الفترة ٢٠١٠-٢٠١٢. بناءً علىٰ ذلك قد كانت دائرتي الاجتماعية الأساسية تتمثل في المثقفين اللامنتمين لحركات إسلامية، ويضاف إلىٰ هذه الدائرة تواصلي المستمر مع مجموعة متنوعة من التجار، والمحاميين، وسماسرة العقارات، وملاك العقارات، والجيران في كلا البيتين: الذي توجد فيه الشقة المستأجرة والآخر

---

(١) نسبة لبوهيميا اسم تاريخي لجزء كبير من التشيك. وعندما تطلق كوصف علىٰ الأشخاص، يكون معناها الشخص المختلف والمفارق لنمط عيش مجتمعه وخاصة في الذوق الفني، ومنها الحركة البوهيمية. (المترجم)

الذي توجد فيه الشقة المملوكة[١].

علىٰ أية حال، فقد تبينت أن سؤالي الناس مباشرة عن عكاشة سوف ينتزع منهم إجابات مشخصنة تمامًا وتختلف بشدة من سياق لآخر، وليس أبدًا كسؤالي إياهم عن شخص مثل جمال عبد الناصر والذي يعتبر أيقونة سياسية وبمثابة اختبار اجتماعي حاسم[٢]. فعندما أسأل: ما رأيك في عكاشة؟ سيختلف الجواب بحسب موقع الشخص من الثورة: معها أم ضدها؟ مع الإسلاميين أم ضدهم؟ «ومن هنا تأتي أهمية العمل الميداني للأنثروبولوجين، والذي

---

(١) عندما أقول «نحن» فأنا أقصد نفسي وشريكة حياتي لوسي رايزوفا وابننا جان والذي كان في الثالثة من عمره عندما جئنا للقاهرة في ٢٠١٠. ولوسي مؤرخة للشرق الأوسط الحديث (رايزوفا ٢٠١٣) وهي التي حمستني بقوة لشراء الشقة والتي كنا نحتاجها لحفظ ما نقتنيه من كتب. أيضًا في ٢٠١٠ وقبيل الثورة مباشرة اشترينا شقة صغيرة أخرىٰ بشارع شعبي بعابدين، علىٰ النقيض من الشقة الأولىٰ والتي كانت في بناية أكثر رقيًا تنتمي للطبقة الوسطىٰ.

(٢) Litmus test: هذا المصطلح مستعار من الكمياء ويعرف عربيًا باختبار ورقة عباد الشمس والذي يدرك به درجة حموضة أو قلوية سائل ما (الأس الهيدروجيني) حيث تستحيل ورقة عباد الشمس الحمراء إلىٰ زرقاء في المحلول القلوي. وتستحيل الزرقاء لحمراء في المحلول الحمضي. ويستخدم هذا المصطلح في السياق السياسي كسؤال حاسم عن قضية سياسية أو أخلاقية بعينها تحدد الإجابة عليه مصير المرشح السياسي مثلًا هل سيتم قبوله أو رفضه. والمقصود هنا أن حال عبد الناصر واضح ومميز بالنسبة للجميع علىٰ العكس من حال عكاشة المبهم، ومن ثم سؤال الناس حتىٰ العاديين البعيدين عن السياسة عامة عن عبد الناصر سيقدم جوابًا حديًا وحاسمًا: معه أو ضده بخلاف سؤالهم عن عكاشة الغامض. (المترجم)

يتضمن المكث لفترة طويلة في موقع الدراسة، أو عدم المكث فيه علىٰ الدوام ولكن مع العودة إليه مرارا وتكرارا علىٰ مر السنين والعقود؛ إذ بدون ذلك لن يتمكنوا من سماع «صدىٰ المكنون»[(١)] the buzz of implication والذي به نقف علىٰ الطبيعة الحقة للمجتمع». (دريش وجيمس ٢٠٠٠: ٩). إن صدىٰ ما هو مكنون عن عكاشة يأتينا عبر وضعيات طبقية متنوعة وبأصوات عالية حينا ومنخفضة حينًا آخر. والحق أن كوني لم أعد مضطرا أن أستنطق الناس مستطلعا آراءهم حول عكاشة ليعد ميزة كبيرة بالنسبة لمهامي في هذه الدراسة؛ لقد كان سماعي «صدىٰ ما هو مكنون» عن

---

(١) Buzz of implication : مفهوم جديد لم أقف علىٰ ترجمة عربية له. وهو قادم من حقل النقد الأدبي استخدمه الناقد الأمريكي ليونيل تريلنج (١٩٠٥-١٩٧٥). ويقال أن أول من ابتكره هو الأديب الإنجليزي إدوارد مورجان فورستر (١٨٧٩-١٩٧٠). وقد اجتهد د: سعد البازعي واقترح عليّ ترجمته بـ: «همهمة المعنىٰ» أو «همهمة الدلالات». فالناس يهمهمون من حولنا بمعانٍ تعبر عن مكنون صدورهم، همهمة غير واضحة ولا تقول المعنىٰ صراحة، والأديب هو من يلتقط بمهارة هذه المعاني المبثوثة في تلك الهمهمات. وفي السياق الأنثروبولوجي الذي نحن بصدده، تفيد استعارة هذا المفهوم كون الأنثروبولوجي الذي يمكث في الحقل الميداني الذي حدده لإجراء دراسته، أو علىٰ الأقل يتردد عليه باستمرار، يكون أكثر اقتدارا علىٰ إدراك سلوكيات وإيحاءات وأقوال الناس العفوية وغير المقصودة، والتي تتضمن معاني وفيرة عن طبيعة أشخاص المجتمع المدروس لا يمكن دركها من خلال الأقوال المباشرة. وقد آثرت ترجمة المفهوم بـ«صدىٰ المكنون»؛ فالهمهمة ليست عينها هي المقصودة، وإنما ما تحيل إليه من معنىٰ كامن في النفس، نحن نقبض في هذه الهمهمة علىٰ صدىٰ ذلك المعنىٰ المكنون. (المترجم)

عكاشة أنفع لي بطرق شتىٰ من المعلومات التي كنت سأجمعها بطريقة كلاسيكية من موقع ميداني field site خاص به.

والحال، أن الهمهمات عن عكاشة كانت تنم عن إدراك متزايد لخطورته المحتملة؛ لقد كان عكاشة وبوضوح تام علىٰ علاقة بالجيش وبشخصيات أمنية، وبالطبع كان هذا التواصل محاطًا بقدر كبير من السرية. إن الباحثين الأجانب (والمصريين أيضًا) ليس بميسورهم تمديد نطاق بحثهم وهم في مأمن من الأذىٰ لمنطقة عسكرية أو أمنية وهي مناطق تمثل مكونًا هامًا للغاية من موقع ميداني لعكاشة، لقد تحدثت بمحض الصدفة إلىٰ واحد من المعجبين بعكاشة، والذي تبين أنه عسكري متقاعد، راح الرجل يتفاخر أمامي بكون أفضل أصدقائه وأقربهم إليه هم من رجال شرطة. والحال أنني لم أحرص علىٰ استمرار التواصل مع هذا الرجل؛ فجهره بإخلاصه للجيش والشرطة في هذا السياق كان بمثابة نذير ووعيد لي.

عامة، ما كان من الحكمة في شيء، أن أتقصد التواصل مع شخصيات أمنية، خاصة فيما بعد الثورة. ولقد ازدت إيمانا بوجهة النظر هذه بعد الواقعة التالية: واحد من أصدقائي المقربين (أجنبي) قرر أن يدعم المتظاهرين بطريقة مباشرة، وبالفعل راح يشارك في الاعتصامات، وهناك كان يتكلم مع أشخاص لا يعرفهم، وعقد صداقات مع البعض بيسر وبسرعة مدهشة، لقد قدم هؤلاء أنفسهم له كثوار متشددين. إن معارف صديقي الجدد هؤلاء قد استغلوه

وتوسلوا به كيما يدخلوا إلىٰ مكان معروف بكونه موقعا لتجمع النشطاء الثوريين. وما إن اشترك هؤلاء الأشخاص أو قل «المخبرون» إن شئت الدقة (لقد اكتشف النشطاء مباشرة أنهم من عملاء النظام) في دائرة الحوار حتىٰ راحوا يدافعون باستماتة عن ضرورة حمل السلاح ضد الجيش، في محاولة فاشلة منهم لجر باقي النشطاء إلىٰ تبني العنف. والحال أن حمل السلاح ضد الجيش بمثابة انتحار حقيقي، وهو أمر لم يدع إليه قط النشطاء الحقيقيون.

فلنعد إذن لبرنامج عكاشة؛ منذ أواخر ٢٠١١ وحتىٰ انتخاب محمد مرسي رئيسًا لمصر في يونيو/حزيران ٢٠١٢ (بعد ذلك سيبعد الرئيس مرسي بسرعة عكاشة عن الإعلام لشهور عديدة)، كان الموضوع الرئيس في البرنامج هو المؤامرة التي تحيكها الولايات المتحدة ضد مصر. بالطبع السياسة الأمريكية تجاه مصر تستحق النقد، ولكن خطب عكاشة البليغة تصرف الانتباه بعيدا عن القضايا الهامة؛ كالضغط الأمريكي علىٰ مصر كي تعتمد أجندات اقتصادية ليبرالية، أو ضمان أمن إسرائيل من خلال علاقة الولايات المتحدة وثيقة الأواصر مع الجيش المصري. إن مثل هذه القضايا هي آخر ما يود عكاشة أن يلفت انتباه الناس إليه في واقع الأمر. والحال أن جوهر برنامجه يرتكز علىٰ: ادعاءات مبهمة عن نوايا الولايات المتحدة، والخطط الأمريكية - الإسرائيلية لتقسيم مصر لأقاليم يحارب بعضها البعض، أو علىٰ الفكرة القائلة بأن ثورة ٢٥

يناير تمت بتخطيط وتدبير جواسيس أمريكا بغرض تدمير مصر، هكذا ببساطة!

والحق الذي ينبغي أن يُعلم، أن عكاشة ما كان أبدًا وحده من لعب بورقة التدخل الأجنبي؛ فمبكرا أثناء الثورة، وقبل أن يبزغ عكاشة ويشتهر، كاد نظام مبارك أن يصم الآذان بخطاباته الفظيعة عن المؤامرات الأجنبية التي تحاك بمصر. لقد شاهدت بأم عيني الجيش يحاصر الأجانب في الشارع الذي أعيش فيه، ولقد أرغموهم آنها علىٰ الصعود إلىٰ سيارات الجيش حيث كانوا يفتشونهم بحثا عما يثبت أنهم صحفيون، ثم اعتقلوا بعضهم بالفعل[1]. لقد انتهىٰ ذلك علىٰ أية حال في غضون أيام قليلة، وتوقفت الاعتقالات، تبعًا لأوامر جديدة فيما يبدو.

غالبًا ما يبذل عكاشة مجهودات مضنية ليلمع نفسه ولكي يُعترف به، وفي هذا السبيل كان يدعو للانتباه بجدية للشخصيات الأجنبية البارزة، التي تأتي لمصر. في مناسبة ما، لم يفوت عكاشة فرصة وجود كاتب عمود الرأي الأمريكي توماس فريدمان في القاهرة، وسلخ جل حلقة البرنامج التي عرضت يوم ١٥ يناير في الحديث عنه، لقد عرف عكاشة فريدمان بأنه مؤلف كتاب «صراع الحضارات» (ربما قصد مؤلف فريدمان: العالم مسطح، أو سيارة

---

(١) أفترض أن هؤلاء المعتقلين يتعرضون للإهانة والتهديد، ثم بعد ذلك وفي بعض الحالات يطلق سراحهم. ولكننا لم نعتقل أبدًا؛ فربما كان رجل وزوجته وطفلهما نموذجًا لا يتطابق مع ما طلب من الجنود أن يبحثوا عنه.

اللكزس وشجرة الزيتون) إن المنولوج الذي قدمه عكاشة عن فريدمان يصلح تمامًا لتبرير سبب خشية المرء من أن يجذب انتباه هذا الرجل:

«وسائل الإعلام الإلكتروني بتفسد الشعوب والأمم، لأن هدفها هو تمزيق الشعوب، مش عايزه يكون فيه جماعات أو قادة أو كوادر. ده مش كلامي، مش كلامي أبدًا، ده كلام توماس ل. فريدمان الصحفي الأمريكي اليهودي، اللي بيكتب وبيشارك في صناعة الاستراتيجيات السياسية الأمريكية، واللي تم تدريبه في مركز الدراسات الاستراتيجية للشرق الأوسط، هو هنا في مصر دلوقتي. وأنا بوجه له الكلام، لتوماس ل. فريدمان، اللي موجود في مصر دلوقتي. وبوجه كلامي أيضًا لمركز «ميمري» (مركز الدراسات الإعلامية الشرق أوسطية)، أنا بقول لهم، أنا بأتمنىٰ أن يتصل بي الأستاذ توماس ل. فريدمان زي ما اتصل بناس تانية، أتمنىٰ إنه يكلمني، ويارتني كنت أعرف عنوانه أو رقم تليفونه عشان كنت كلمته أنا، وساعتها كان ممكن يستضفني في أمريكا، وساعتها هنكون خالصين؛ لإن أنا استضفته هنا في مصر من ١٠-١١سنة. أنا بأكد مرة تانية، وبقول للأخ الفاضل (قالها ساخرًا) وهو بالمناسبة رجل جاد، وأنا كإعلامي علىٰ إني أحترمه بغض النظر عن أفكاره، ولكن لازم يحترم، هو شخص

محترف، وكمان سياسي محترف، وهو واحد من الصحفيين السياسين اللي أنا ... مش بحترمهم بس بتابعهم، وباخد بالي هم ازاي بيستخدموا الإعلام عشان يفرضوا سياسات ويفرضوا نظام إقليمي وعالمي. وازاي بيوظفوا الصحافة لتنفيذ الاستراتيجيات السياسية لأقوىٰ دولة في العالم، ده واضح، ده حقيقي، وعلينا إننا نوضحه للناس. هو ده توماس ل. فريدمان أمريكي ويهودي الديانة، وله علاقات قوية مع الأيباك، المنظمة الأمريكية الصهيونية، الحقيقة هو واحد من أهم مفكرين المنظمة، هو ده اللي بيعمله، وده مش عيب. واحنا عندنا ناس متورطة في نشاطات مشابهة زي الإشتراكيين الثوريين والأناركيين والناس إياهم اللي إنتم عارفنهم. احنا عندنا ناس زي كده، هل ده يعني إننا نرميهم بره؟ لا، في النهاية هما مصريين. احنا نفتح حوار معاهم ونعيد بناء أفكارهم ونعيد تشكيل أفكارهم مرة تانية، ونفتح حوار علمي هادف ومبني علىٰ وثائق وأدلة. أو ببساطة نرميهم. عايزين تعرفوا رأيي الشخصي؟ لا، لازم ما نسيبهومش، لازم نفتح حوار معاهم. مجموعة منهم بيعرفوا في الفكر السياسي والفلسفة -خدوا بالكم أنا هقولها دلوقتي- السياسة والفلسفة الاجتماعية المصرية مش العربية ...».

بالطبع أن لست بشخصية عامة، وما كان لي أن أنتظر مثل

هذه المعاملة من عكاشة، ولكن أي أكاديمي أمريكي عرضة لأن يحدث له ذلك، وعلىٰ المرء أن يتعظ مما جرىٰ لتوماس فريدمان، وهو الذي في واقع الأمر واحد من دعاة بسط السطوة الأمريكية سياسيًا واقتصاديًا مزيدًا علىٰ العالم. وأيضًا هو بلا أدنىٰ ريب مؤيد لإسرائل وللصهيونية (فيرنانديز ٢٠١١)، قد قام عكاشة بالزج به ضمن خليط مريب من المؤامرات التي تحتوي علىٰ بعض الحقائق فعلًا، ولكنها أيضًا لا تخلو من أفكار خيالية تمامًا. علىٰ سبيل المثال: عندما انقسم السودان لدولتين في ٢٠١١ قبيل الثورة المصرية، قال عكاشة:

«هذا هو مخاض المرحلة التانية من اتفاقية سايكس- بيكو، وطبعا بيتم في التوقيت اللي يخدم هدف الماسونية اللي هو تشكيل حكومة عالمية خلف الأهرامات». (من حلقة ١٨ ديسمبر)

وها هو مثال آخر من حلقة ٩ فبراير حيث اصطنع اتهامًا بالغ الغرابة، يتحدث عن خطة يهودية محكمة لتخفيض نسل الشعب الألماني:

«أنا بوجه كلامي لليهود، وبقولهم ياخوانا ماتضحكوش علىٰ نفسكم، إنتم بتلعبوا بالجغرافية السكانية بتاعة ألمانيا علىٰ قد ما بتقدروا، إنتم تلقيتم أمر بإنكم تكرهوا الألمان في الجواز، وبالتالي ما يكونش فيه أطفال، لكن إيه اللي بيحصل في ألمانيا النهاردة؟ من

خمس سنين بالظبط؟ بيجوزوا زي المجانين، الجواز زي الصاروخ، وعندهم أطنان من الأطفال، الإنجاب صواريخ. في ألمانيا النهاردة، إنتم متابعني؟ لو نجحوا (اليهود يقصد) ... لو خلوا الألمان يكرهوا الجواز، الشعب الألماني هيفضل زي ما هو، زي فرنسا ...».

ولكن ينبغي ألا نتمحور حول انزلاقات عكاشة المريعة هذه، ونختزله فيها[1]، ومن ثم نحط من قدره كرجل دعاية من طراز فعال تماما؛ إن لبرنامجه هذا قدرة على بلبلة الرأي العام وقلبه في واقع الأمر. ولنأخذ مثالا على ذلك: في ١٨ ديسمبر ٢٠١١ (قبيل مظاهرة العباسية) كانت القاهرة تهتز بسبب نشر صور لقوات الأمن وهي تسحل واحدة من المتظاهرات على الأرض، وقد انكشف جسدها، وراح جندي يركلها في بطنها بقسوة. لقد اشتهرت الواقعة باسم قضية «الفتاة المسحولة» وأحيانًا في الانجليزية بقضية «السيدة ذات الصدرية الزرقاء». جريدة التحرير المؤيدة للثورة، قامت بنشر هذه الصورة مموهة على صفحتها الأولى ليومين متتالين. وعندما رأيتها في اليوم الثاني عند بائع الجرائد في شارعي، علقت له عليها، فرد عليّ بحدة قائلًا: «هذا لأنهم حقًا فخورون بهذه

(١) بعدما عرض أرمبرست الجانب الهزلي من عكاشة، عرض الوجه الآخر من سماته وهو الوجه الخطير. والحال أن اجتماع هذين الجانبين في شخصية عكاشة هو ما جعله أهلًا لأن يوصف بالحاوي. فهذه هي سمة الحاوي الجوهرية: الازدواج: هزلي وخطير في نفس الوقت. (المترجم)

الصورة.». لقد تجاذبنا أطراف الحديث حول هذه الواقعة، وكنت مذهولًا بحق من إنكاره ما بدا إهانة صريحة وواضحة تمامًا للمواطنين من قبل العسكر. لقد كان يعتقد أن الأمر برمته مزيف ومصطنع. ربما لا يكون من قبيل المصادفة، أنه عندما كان الفيديو الذي تسحل فيه الفتاة ينتشر كالفيروس في كل الأرجاء، كان برنامج عكاشة وبكل نشاط يطعن في مصداقية الصورة، مدعيًا بأن الأمر من تدبير «الطرف الثالث» بغرض تشويه سمعة الجيش[١].

في قضية «الفتاة المسحولة» لم يكن ثمة علاقة مباشرة بين بائع الجرائد إياه وعكاشة. ولكن ثمة قضية أخرىٰ: لقد اختلق عكاشة وبكل وضوح قصة من العدم ثم ألقاها بين الناس؛ كان ذلك في أواخر إبريل ٢٠١١، حين خرج عكاشة علىٰ الناس بهذا الخبر: إن مجلس الشعب الذي يسيطر عليه الإسلاميون يناقش الآن ما يُسمىٰ بـ«قانون المضاجعة»؛ وهو قانون يجيز للرجل أن يضاجع زوجته المتوفاة لغاية ست ساعات من لحظة وفاتها. لقد انتشرت القصة علىٰ نطاق واسع، حتىٰ أن الصحافة الأجنبية قد التقطتها. ربما كان أصل هذه القصة يرجع إلىٰ فتوىٰ شيخ مغربي مثير للجدل يسمىٰ «عبد الباري الزمزمي» (عاصفة الغضب ٢٠١٢). موضوع مناقشة مجلس الشعب لهذا القانون قد نشر في جريدة الأهرام، عدد **٢٤** إبريل،

---

(١) لم يكن عكاشة هو من هاجم فيديو «الفتاة المسحولة» ولكن رفيقته في تقديم البرنامج حياة الدرديري هي من فعلت ذلك. لعل قيام سيدة بتقويض الفيديو أخلاقيًا سيكون أكثر تأثيرا علىٰ الناس من أن يفعل رجل.

معزوا لمحرر ما (عبد السميع ٢٠١٢)، والحال،أن المصدر الحقيقي للقصة هو عكاشة، من حلقة برنامجه يوم ١٦ إبرايل:

«أنا حقيقي مرعوب من الرجل ده (يقصد سعد الكتاتني)، اللي هو عضو في مجلس الشعب، اللي جه للبرلمان بعد الناس ما انتخبوه، عشان يكلمكم عن «مضاجعة الوداع». والله كنتم علىٰ حق، إنتم متخيلين إني ما كنتش أعرف؟ أنا قرأت عنه في الصحافة الأجنبية، وإنا ما زلت مابتابعهاش، فرجعت عشان أتأكد، ولقيت الموضوع صحيح، يعني في حد مفكر إنه من شغل البرلمان إنه يجيز بالقانون، شايفين؟ إنه يعمل قانون اسمه «قانون مضاجعة الوداع». يعني إيه «قانون مضاجعة الوداع»؟ القانون ده يعني إن الزوجة لما تموت، من حق الزوج إنه يكون معاها كزوج لمدة ست ساعات بعد ما روحها تصعد لخالقها. يا الله هي دي مشاكل الأمة الإسلامية. هي دي مشاكل الرجالة المسلمين (قالها بصوت عالي ووجه متجهم) مشكلة الرجالة المسلمين هي مضاجعة الوداع! الله أكبر. أنا مش فاهم حاجة ...».

بالرغم من كون القصة قد نشرت في الصحافة العربية والأجنبية، إلا أن كذبها قد تبين بعد عدة أيام. حتىٰ أن الصحيفة الإنجليزية الشعبية «الدايلي ميل» تراجعت عن نشرها للخبر بسرعة (خطط مصر ٢٠١٢). ولكن عددًا قليلا من المقالات والمدونات

الكثيرة التي تتبعت جذور هذه القصة قد تمكنت من اكتشاف الكاذب الحقيقي الذي اختلقها: عكاشة[1].

(١) كمثالين من أمثلة كثيرة لمرويات الكذبة المصرية (كمقابل للمصدر المغربي الأصلي لها) التي عزتها لعبد السميع: هاجلوند وكارلشمر ٢٠١٢. ومسجي٢٠١٢. بينما المدونة الوحيدة التي نصت علىٰ كون عكاشة هو المصدر الوحيد لهذه الفرية، هي مدونة تواريخ مصرية. (http://egyptianchroniclesblogspot.co.uk/). وأنا متيقن تمامًا من كون هذا المصدر قد استقىٰ معرفته بدور عكاشة في هذا الحدث من منشوراتي عن الموضوع علىٰ الفيسبوك.

## فلنأخذ عكاشة على محمل الجد

لقد تبين لنا من الأمثلة آنفة الذكر، أن عكاشة (أو قل الحاوي) لديه ما هو أكثر من الضحك ليقدمه؛ إن الحاوي شخصية فعالة ومنتجة بطبعها، حتىٰ ولو لم تتقصد ذلك. الحاوي «يضحكنا ويرهبنا في آن» كما يقول رادن (١٩٥٦ : x). وفي «أزمة المجاز» نقطة اللاعودة التي تفصل بين الضحك والرهبة، هي تحديدا التي يصير الحاوي عندها شخصًا خطيرًا: «إن المشهد المثالي لأولئك الذين ينصبون أنفسهم بلا وجه حق قادة لاحتفالات الطقوس، عندما يدعون أنهم يعلمون الغيب، في حين أنهم ما حازوا وضعهم هذا إلا بإطالة أمد وضعية المجاز وتفريغها من كل إبداع حقيقي». (توماسين ٢٠١٢: xx)

والحال أنه من الميسور لنا أن نرصد ما هو مضحك في عكاشة؛ فالأدلة عليه متوفرة علىٰ الإنترنت بدرجة مذهلة. ولكن أولئك الذين يشاهدون عكاشة دون أن يضحكوا، الذين يثير عكاشة رهبتهم أكثر مما يثير ضحكهم، لا يتركون خلفهم كثيرا من الآثار التي يمكن تتبعها.

خارج العالم الافتراضي، شهرة عكاشة راحت تتضح مع

الوقت؛ فمن ديسمبر ٢٠١١ علىٰ أقل تقدير، كانت تعليقات الناس علىٰ عكاشة تتطرق إلىٰ أذني بصورة مستمرة، ولكن للأسف لم يكن بوسعي أن أحيط علمًا بمضامين حوارات الناس عنه في الفضاء العمومي، كنت فقط أسمع مقتطفات من أحاديث المارة، من قبيل: «إنت سمعت عكاشة قال إيه»، أو «دا عكاشة هيتجنن لما يسمع عن الموضوع ده».

إن أصدقائي المصريين (علمانيين يساريين) كانوا يبتسمون ساخرين في كل مرة كنت أقول لهم فيها، أود أن أكتب عن عكاشة. ولكنهم غالبا ما كانوا يؤكدون لي وبلهجة أكثر جدية، أن عكاشة شخص مؤثر بالفعل، خاصة علىٰ الطبقة الوسطىٰ الدنيا والريفيين من الشعب المصري، وهؤلاء في واقع الأمر الجمهور الذي يستهدفه برنامجه «مصر اليوم»، وهؤلاء هم من قال عنهم عكاشة نفسه مرارا أنهم مؤيدوه من الأغلبية الصامتة. والحال أنني قد قابلت مرة واحدًا من المعجبين المتعصبين جدًا لعكاشة، كان سائق تاكسي، سيارته عتيقة من طراز فيات ١٩٧٠ ولا تحمل لوحة أرقام. قد أقلني من الفجالة حيث كنت أشتري حماما لإحدىٰ شقتينا، وذلك قبيل انتخاب مرسي. لقد ادعىٰ لي أنه ميكانيكي سابق في سلاح الطيران. ولكنه بعد ذلك عمل في قطاع الطيران المدني، حتىٰ تم تسريحه لترقية من هم أصغر سنًا. ثم قال لي فجأة «الثورة خربت الأمة»، عندما سمعت ذلك، اعتدلت في جلستي وانتبهت؛ لأن «تخريب» هذه واحدة من التهم الفارغة التي يكثر عكاشة من

رمي الثوار بها. علىٰ أية حال، فإن السائق بعد ذلك بقليل زل في حديثه معي، مفصحًا عن كون عكاشة هو معلقه السياسي المفضل. فسألته حينها: «لماذا تشاهد عكاشة»؟ «عشان هو الرجل الوحيد في التليفزيون اللي بيقول الحقيقة». هذا ما أجابني به. فقلت له مشككًا: «صراحة عكاشة هذه تشير إلىٰ أنه يسعىٰ لتحقيق مآربه الخاصة»، فرد علي مستنكرًا: «وليه؟ هو ملوش أي مصالح خاصة، وأنا متأكد إنه علىٰ علاقة قوية جدًا بالمجلس العسكري، ناس في الجيش قالوا لي كده. ولكنه بيعمل من أجل حب مصر وبس».

في الفترة التي سبقت انتخابات الرئاسة (آواخر ربيع ٢٠١٢)، صار عكاشة ببساطة الوجه المعبر عن عداوة الثورة وعداوة الإخوان. بلا شك كان البعض يدرك غرابة عكاشة، لكنهم لم يدركوا الوضع السياسي المؤثر الذي بات يحتله. في العشرة أيام التي سبقت الإعلان عن نتيجة الانتخابات الرئاسية، تظاهر مئات الآلاف من أنصار شفيق بمدينة نصر أمام المنصة أو النصب التذكاري، حيث قُتل السادات علىٰ يد إسلاميين في ١٩٨١، وهذا المكان لطالما كانت تتم فيه المظاهرات المناهضة للإخوان. والحق أن أعداد المتظاهرين الغفيرة هذه، وبالرغم من كونها قد دُعمت بأفراد تم نقلهم بحافلات من المحافظات (تمامًا كما كانت تفعل جماعة الإخوان المسلمين، لتنظم مظاهرات تملأ العين!) يعود الفضل لعكاشة ولعكاشة وحده في تجميعها. وفي اليوم الذي سبق إعلان النتيجة، كان ثمة تجمع آخر ولكن في ميدان التحرير هذه

المرة؛ هناك سمعت محمد البلتاجي أمين عام حزب الحرية والعدالة، الذراع السياسي لجماعة الإخوان المسلمين وهو يحمس المتظاهرين قائلًا: «الشائعات بدأت تخرج من عند «شفكشا» (نحت من شفيق وعكاشة) بتدعي إن ٦ إبريل (يقصد نشطاء حركة شباب ٦ إبريل العلمانية والتي دعمت مرسي ضد شفيق في الانتخابات) انسحبت من الميدان، ده كذب! هم لسه موجودين معانا هنا».

بالنسبة لي، فإن الآية الأكثر دلالة علىٰ المكانة الهامة التي بات عكاشة يحتلها، قد ظهرت لي بعد فترة وجيزة من حسم السباق الرئاسي؛ كان ثلاثة نجارين يعملون في إحدىٰ شقتي، ذات مرة قال واحد منهم لصاحبيه أن عمر سليمان رئيس المخابرات العامة المصرية الأسبق، والمرشح الرئاسي، قد مات. ويبدو أن أحدهما لم يكن علىٰ علم بذلك، فأصابته صدمة ولم ينطق. بينما الثاني رد قائلًا: «ومرسي تعبان كمان»، فضحك النجار الأول، ثم قال له: «وهتشوف توفيق عكاشة برضو هيطلع تعبان». لم يكن هذا الحوار من وجهة نظري مجرد إشعار بأن أولئك متأثرون بخطابات عكاشة، لقد كان في واقع الأمر ما هو أكثر من ذلك؛ لقد أعربوا عن تشكيك في ما هو سياسي بعامة. إنه لأمر لا يصدقه عقل؛ عكاشة الذي كان قبل عام واحد من ذلك الوقت، شخصًا هملًا تمامًا، قد أصبح اسمه يتداول وسط أسماء المرشحين لرئاسة الجمهورية، ويكأنه واحد منهم! إن «الحاوي» قد تمكن من وضع نفسه وسط سياق مخصوص تماما، لا ينتمي هو إليه بحال؛ فماله ومال نقاش

عن مرشحين للرئاسة! إن ذلك يوحي يقينًا بأننا قد تجاوزنا نقطة اللاعودة التي تفصل ما بين الضحك والرهبة!

# الـخـاتـمـة

إن رصد بزوغ عكاشة في الفترة من أواسط ٢٠١١ لأواسط ٢٠١٢، يشبه بدرجة ما مشاهدتنا لبزوغ أودلف هتلر[(١)]: «حاوٍ» يبدو وكأنه خرج من العدم، مجرد أضحوكة ولكنه فجأة تحول إلىٰ شخص مخيف تماما. ولكني تأملت أن يبرهن هتلر الصغير هذا الذي يمثله عكاشة، مع الوقت علىٰ أنه قد ولد ميتًا، هذا ما كنت أفترضه حين رحلت عن مصر في أغسطس ٢٠١٢، لقد كنت أظن أن عكاشة قد وصل للقمة في شهر يونيو، حيث كاد أحمد شفيق أن يفوز باتخابات الرئاسة، وليس بوسعه أن يبلغ أكثر من ذلك. ولكني عندما أبتُ لمصر في زيارة قصيرة بعد ذلك بستة أشهر في فبراير،٢٠١٣، لم أعد متأكدًا من ذلك؛ لقد وجدت نفسي في «فايمار»[(٢)] مصرية؛ المدن تغلي غضبًا من حكم الإخوان

(١) تستخدم مقاربة الحاوي ووضعية المجاز أيضًا في تحليل شخصيات كهتلر ومعمر القذافي، بوصفهم أشخاصًا ظهرت في سياق مجتمع يمر بأزمة مجاز فاكتسبوا قدرا من الكاريزما بسبب توافرهم علىٰ سمات شخصية الحاوي، مما أدىٰ لالتفاف الناس حولهم، وأوردوهم من ثم المهالك. (المترجم)

(٢) نسبة إلىٰ جمهورية فايمار، وهو اسم ألمانيا في الفترة من ١٩١٩-١٩٣٣، أي من بعد خسارتها الحرب العالمية الأولىٰ وحتىٰ سيطرة النازية علىٰ الحكم. وقد تسمت بذلك =

المسلمين. ثمة اشتباكات عنيفة شبه يومية بين المؤيدين والمعارضين للحكومة، وقوات الأمن تبدو مشلولة تمامًا بسبب الانقسام، الأسعار قد ارتفعت بقسوة، ومعدلات التوظيف انخفضت، والجميع قد تبين له أن البلد علىٰ حافة انهيار اقتصادي. ولأول مرة منذ بدايات ٢٠١١، أسمع الناس في ضرب من النوستالجيا يعبرون صراحة عن حنينهم لأيام مبارك. إن بعض الناس راحوا يطلبون علانية من الجيش أن يطيح بالإخوان المسلمين، ويعود للسطة.

في خلال أسبوع تحدثت مع أكبر عدد ممكن من الناس، وقد كانت الأمزجة تتراوح من اليأس العميق بسبب «أخونة الدولة»، إلىٰ التفاؤل الحذر بأن مشروع الإخوان المسلمين الشمولي/ التوتاليتاري، (كما وصفه لي أستاذ جامعي)، قد بدأ في الانهيار التام، ولن تقوم له بعد ذلك أبدًا قائمة. كثير من أولئك الذين تحدثت معهم أبدوا لي حنقهم الشديد علىٰ الولايات المتحدة، لأنها قد «باعت» البلد للإخوان المسلمين، ويكأنها إذن أصداء الغضب الألماني من معاهدة فرساي[1] بعد الحرب العالمية الأولىٰ.

= نسبة لمدينة فايمار الألمانية، والتي كتب فيها الدستور الألماني آنها، وهو واحد من أرقىٰ وأفضل الدساتير في هذه الفترة (شارك في كتابته ماكس فيبر). ولقد كانت المشاكل السياسية والاقتصادية تعصف بألمانيا طوال هذه الفترة، حتىٰ صارت جمهورية فايمار مثالا كلاسيكيا علىٰ الديمقراطيات الفاشلة. (المترجم)

(١) نسبة لقصر فرساي بفرنسا، حيث وقعت الاتفاقية، في يونيو،١٩١٩، وهي اتفاقية =

علىٰ المقهىٰ، تحدثت مع بعض الأصدقاء، واحد منهم كان مخرجًا، وكان بصدد إخراج فيلم وثائقي عن البلطجية[1]. وقد كان من همه في هذا العمل أن يحاول تتبع مصادر تمويلهم، ولكن محاولاته كانت مخيبة للآمال في واقع الأمر؛ فهي تفشل تماما فقط قبل الوصول لمصدر (أو مصادر) التمويل الحقيقي. والحال أن عكاشة ممول محتمل للبلطجية، ومن ثم كان يقع في دائرة اهتمام صاحبي المخرج. وعندما ذكرت له افتراضي آنف الذكر، بأن عكاشة قد وصل لمداه الممكن عند نهاية حملة شفيق الفاشلة لانتخابات الرئاسة، اعترض بشدة، وقال لي: «فلتنتظر ما سوف يحدث في الأشهر المقبلة»، إن صاحبي يرىٰ أنه من المحتمل أن يتم توظيف عكاشة بشكل رسمي في جهاز حكومي ما، غالبا الجهاز الذي كان يعمل معه علىٰ الدوام، ربما سيكون المخابرات العسكرية.

وبعد، فإن المقارنة بين جمهورية فايمار والأشهر الأولىٰ من

= السلام التي أنهت الحرب العالمية الأولىٰ. وقد جاءت الاتفاقية مذلة لألمانيا، حيث تضمنت اعترافها بالمسؤولية عن اندلاع الحرب، وألزمتها بتعويض الأطراف المتضررة ماليا، مما أضر بقسوة بالاقتصاد الألماني وتسبب في حالة غضب عامة بين الشعب الألماني. (المترجم)

(١) لقد قدر عددهم بنصف مليون شخص تقريبًا يمتد نشاطهم لمختلف أرجاء مصر، في هذا الوقت. لقد كان فيلم يعتمد بدرجة ما علىٰ العمل الميداني المستتر بين هؤلاء البلطجية، وهو لم يكن يتوقع أن يعرض قبل ٥ أعوام تزيد أو تقل، لأنه كان يريد أن يضمن عدم تعرضه للأذىٰ بسببه.

حكم مرسي، قد تبدو هشة ومحدودة في سياقها الاقتصادي؛ نظرا للتناقضات الكثيرة بين الظروف الاقتصادية للحالتين. ولكن ثمة منحىٰ آخر تبدو فيه هذه المقارنة وجيهة بدرجة كبيرة: ظهور رموز سياسية ذات طبيعة كاريزمية غامضة في مثل هذه الظروف التي اشتركت فيها الحالتين.

من المعلوم أن بيتر ورسلي[1] يرفض بضراوة المعنىٰ «الفيبري[2]» لمصطلح الكاريزما، فبحسب ورسلي مصطلح الكاريزما لدىٰ فيبر «مصطلحا اسفنجينا[3]» (١٩٦٨: ٢٧٢)؛ إذ إنه يعبر وفقط عن علاقة توتولوجية[4] بين قائد حركة مجتمعية ما وأتباعه، الذين لا يرونه يتميز عنهم في شيء[5]. ولما كانت

---

(١) بيتر موريس ورسلي (١٩٢٤-٢٠١٣) عالم اجتماع وأنثروبولوجي بريطاني مرموق، وأحد رموز ما يعرف باليسار الجديد، من أهم أعماله: ماركس والماركسية (١٩٨٢)، العوالم الثلاث (١٩٨٤)، والعالم الثالث (١٩٦٤). (المترجم)

(٢) نسبة لعالم الاجتماع الألماني الشهير ماكس فيبر (١٨٦٤-١٩٢٠)، ومعلوم أن فيبر من أشهر العلماء الذين اشتغلوا علىٰ مفهوم الكاريزما، بل لعله هو أول من أدخله في حقل الاجتماع السياسي، (المترجم)

(٣) المقصود أنه مصطلح لا تتحدد دلالته بصرامة، وإنما هو مطاط يستوعب الكثير من الدلالات ويتشربها كالإسفنجة. (المترجم)

(٤) التوتولوجيا مصطلح منطقي يقصد به الحشو وتحصيل الحاصل في الكلام، بقول كلام يحمل نفس المعنىٰ بألفاظ مختلفة. (المترجم)

(٥) قبل السبعينيات أبدىٰ علماء الاجتماع عدم ارتياحتهم تجاه المقاربات التي رأوها تفسيرات سوسيو- نفسية مستقاه من مفهوم فيبر للكاريزما (اندرياس ٢٠٠٧: ٤٣٦).=

الكاريزما علاقة اجتماعية، فإن تفسيرها يتطلب مقاربة ترتكز علىٰ أسس سوسيولوجية، ويمكننا التمثيل علىٰ ذلك بانجذاب رجال الطبقة الوسطىٰ الدنيا لحالة «البارانويا الوطنية[1]» التي يعبر عنها عكاشة. ولكن المقاربة السوسيولوجية هذه لحالة عكاشة، قدرتها التحليلية تبدو قاصرة تماما كمفهوم الكاريزما «الاسفنجي»؛ وذلك لأن محيط تأثير عكاشة يتجاوز نطاق أتباعه المفترضين من الطبقة الوسطىٰ الدنيا، إن عكاشة ليس مجرد انعكاس أو تمثل لـ «فحولة» رجالات الطبقة الوسطىٰ الدنيا؛ وإنما هو «حدث».

وفي هذا السياق ينبغي أن نلاحظ أن فيبر وهو أهم من تناول مفهوم الكاريزما قد أكد علىٰ «أن الكاريزما في صورتها الخالصة لا يمكن أن تتواجد إلا في أثناء عملية النشأة». (١٩٤٧ : ٣٦٤)؛ فالكاريزما تفهم بوصفها لحظة هدم لما هو قار وروتيني بواسطة

---

= والمدرسة الجديدة من منظري الحركات الاجتماعية قد حرروا أنفسهم من سحر الكاريزما اللاعقلانية، والتي تتصادم مع رؤيتهم للفاعل المجتمعي الذي يصوغ أهدافا عقلانية ويخطط لتحقيقها. (نفسه: ٣٧-٤٣٦). مؤخرا منظرو الحركات الاجتماعية الجدد قد أفسحوا مكانا للتفسيرات الثقافية والنفسية للفعل المجتمعي، ولكن فقط بوصفها تفسيرات تساهم في فهم مسعىٰ الفاعل لتحقيق أهدافه السياسية. (نفسه: ٤٣٧)

(١) البارانويا paranoia اعتلال نفسي يصاحب عادة حالات السكيدزوفرنيا، يشعر المبتلىٰ به بأنه مستهدف من قبل الآخرين، نظرا لأهميته وقدره. ومن ثم يخيل له أن من حوله يكيدون له ويمكرون به علىٰ الدوام. والمقصود هنا أن عكاشة دائم التحدث عن استهداف مصر والخطط التي تحاك ضدها، بطريقة توشك أن تكون مرضية. وتترجم كلمة بارانويا عادة بجنون العظمة أو جنون الارتياب. (المترجم)

الشخص-الرمز، ثم يتم مأسستها بعد ذلك لتتحول إلىٰ نمط سلطة تقليدي أو بيروقراطي عقلاني[1] (أندرياس ٢٠٠٧: ٤٣٧). إن الميل للتعرف علىٰ أهمية الكاريزما من ناحية تعلقها وفقط بالسلطة الممأسسة، يبعد التحليل لا محالة عن «عملية النشأة» بتعبير فيبر، ويقربه من الحسابات العقلانية للفاعلين. والحق أن فهم الكاريزما من وجهها الممأسس يعطينا صورة مشوهة تمامًا عنها.

للتركيز بطريقة أكثر مباشرة علىٰ الكاريزما بما هي كذلك، ربما كان علينا أن نفهمها بوصفها «عملية كاريزمية» علىٰ غرار «العملية الطقوسية» عند فيكتور ترنر؛ فلحظة الانفصال لحظة جوهرية في كليهما[2]، ولكن تيرنر قام بتطوير مفهوم «وضعية

---

(١) لفهم مقصد فيبر علينا أن نكون محيطين علما بتقسيمته الثلاثية لأنماط السلطة أو قل الهيمنة وهو المصطلح المحبب لفيبر (وليس السلطة أو القوة): فبحسب فيبر ثمة ثلاثة أنماط: تقليدي، عقلاني، وكاريزمي. أما الأول فيتعلق بالسلطة المبنية علىٰ احترام التقاليد والأعراف المجتمعية، كالسلطة القبلية والأبوية. أما الثاني فينصرف إلىٰ السلطة المبنية علىٰ احترام القانون والمؤسسات، وهي السلطة في الدولة الحديثة. بينما الثالثة فهي سلطة الفرد أو الزعيم الذي يرىٰ فيه اتباعه امكانات وسمات تستوجب طاعتهم لها. والذي يعنينا في هذا السياق هو مقارنة فيبر بين الأنماط الثلاثة من حيث درجة استمريتها، فيبر يرىٰ أن الأخير وهو سلطة الكاريزما هو أقلهم استمرارية، ولإطالة أمد السلطة الكاريزمية يقوم الزعيم أو الأتباع بمحاولات لمأسستها، ومن ثم تتحول لواحد من النمطين الآخرين: التقليدي أو العقلاني، وعندما تتمأسس الكاريزما تزول في واقع الأمر. وعليه فإن السلطة الكاريزمية لا تكون خالصة ونقية إلىٰ في لحظة نشأتها وفقط، كما قال فيبر. (المترجم)

(٢) في العملية الطقوسية: الانفصال من الوضعية المجتمعية الأولىٰ أي المرحلة الأولىٰ =

المجاز» كتعبير عن حالة البين-بين. مفهومه هذا يبقىٰ أقل أهمية من مفهوم الكاريزما فيما يتعلق بالسلطة العقلانية الممأسسة[1]. والحال أن وضعية المجاز تلتئم علىٰ الشروط التي تتيح بزوغ كل من الشخصية الكاريزمية وشخصية الحاوي. وآنذاك تكون الفوارق الفاصلة بين الشخصيتين ذاتية تمامًا؛ فالكاريزماتي هو الشخص الذي يعجبنا، علىٰ عكس الحاوي ذاك الذي لا يعجبنا.

وبعد، فإن المقارنة بين بزوغ عكاشة، وأحوال جمهورية فايمار التي هيأت بزوغ هلتر، تتيح لنا بلورة مقاربة جديدة للثورات، سواء داخل حقل الأنثروبولوجيا تحديدًا، أو عامة في إطار التحليلات السياسية الموسعة.

لقد كانت بغيتي الرئيسية في هذا العمل، إلىٰ جانب تقديم عكاشة كظاهرة تشكلت ضمن ثورة ٢٥ يناير، هي بيان كون الأنثروبولوجيا تتوافر علىٰ ثروة مفاهيمية غير مقدرة في واقع الأمر، تعيننا علىٰ تعقل الصراع السياسي. وعلىٰ وجه الخصوص مفهوم «أزمة المجاز». في مقابل الانهيار شبه المفاجئ وفشل بعض المرتكزات التحليلية السوسيو-سياسية المشهورة، علىٰ سبيل المثال

---

= من مراحل طقس العبور. وفي العملية الكاريزمية: الانفصال الذي يقوم به الرمز الكاريزمي عن ما هو يومي وروتيني ممأسس في المجتمع بتدشين نظام جديد خاص به. (المترجم)

(١) أي أن مفهوم وضعية المجاز بعيد كل البعد عن العقلانية والمأسسة بخلاف مفهوم الكاريزما. (المترجم)

ما يسميه علماء السياسية وعلماء الاجتماع بـ«الحالة الثورية»، والتي يعنون بها ضمن ما يعنون؛ «انقسام نظام سياسي معين لجبهتين أو أكثر، تتوزع عليهم سلطة الدولة التي كان يحتكرها هذا النظام، بحيث تمتلك كل واحدة منهم قدرا ملموسا من هذه السلطة، و/أو تسيطر علىٰ إقليم من أقاليم الدولة، وتتمتع بقدر مؤثر من التأييد الشعبي». (تيللي ٢٠٠٦: ١٦٠). تبعا لوجهة النظر هذه، يمكننا النظر إلىٰ عكاشة بوصفه مجرد تابع لواحد ضمن «المنافسين أو تحالف لمنافسين يسعون لبسط سيطرتهم علىٰ الدولة أو علىٰ جزء منها». (نفسه: ١٥٩). ولكن هل عكاشة حقا هكذا؟ إن مثل هذه النظرة لا تتيح لنا فهم عكاشة بوصفه فاعلًا مستقلًا؛ ففي مصر ٢٠١٣، حيث أجواء فايمار تعم الأرجاء، ربما كان المجلس العسكري يحتاج لعكاشة أكثر مما يحتاج عكاشة إليه، ومن ثم لا يجوز أن نعتبر عكاشة مجرد ذيل أو محض تابع للجيش.

والحال، كما أن كثيرًا من الأكاديمين المهتمين بدراسة حالات البين-بين، قد أوضحوا كون وضعية المجاز يمكنها أن تكون مثمرة ثقافيًا، فإنها أيضًا حال انعدام السيطرة عليها يمكنها أن تكون جد خطيرة. «في مرحلة المجاز، يخرج علينا رجل رغم كونه مكشوفا أمامنا إلا أننا لا نستوعبه بوضوح: إن شخصيته اللامنطقية تبدي خليطا متنوعا بغرابة من السمات والسلوكيات: مدمر، مبدع، هزلي، ساخر، حيوي، يعاني، فاجر، خاضع، جرئ، ودوما شخص غير قابل للتوقع». (تيرنر ١٩٦٨: ٥٨٠). إن وضعية المجاز

طويلة الأمد التي لا يوجد لها نهاية محددة سواء بفرضها فرضًا أو بالاتفاق عليها، ستبدو بمثابة سكن ومأوىٰ لهذه الشخصية.

إن النظر إلىٰ عكاشة كحاو، يعني أنه ليس مهرجا وفقط وإنما هو أيضًا «بطل فلكلوري»: «أي كائن إسطوري[1]» «يجسد كل الإمكانات؛ من أشدها إيجابية إلىٰ أشدها سوءا وسلبية، إنه بمثابة تجسيد للمفارقة والتناقض». (بابكوك-إبرامز ١٩٧٥: ١٤٨). والحق أن تنزيل هذه الأوصاف علىٰ شخصية عكاشة، يبدو متكلفًا بطريقة مريعة في واقع الأمر، إن الفكرة ليست في اعتبار عكاشة قادرا علىٰ فعل أو خلق أي شيء، وإنما في جرأته علىٰ تقديم ما عنده مهما كان، وفي مقدرته علىٰ تحريك مستمعيه، أو حتىٰ تحويلهم لأتباع وأنصار له.

في ٢٠١١ قد ضحكت ذاهلًا من الخطاب الذي راح عكاشة يحض به الناس في حلقة ٢١ ديسمبر من برنامجه مصر اليوم علىٰ النزول إلىٰ مظاهرته في العباسية: «ملايين وملايين بإذن الله هيطلعوا في يوم العبور ... اليوم اللي الأمة دي وشعبها هيعبروا فيه للأمان، للحرية، لبناء حضارة القرن الواحد والعشرين!، حضارة مصر، اللي الشعب هيبنيها في القرن الواحد والعشرين بإذن الله». في واقع الأمر، بضعة آلاف من رجال الشرطة وأسرهم هم من قد

---

(١) المقصود ببطل وبإسطورة في هذا السياق ليس التمجيد بالطبع، ولكن المقصود هو المعنىٰ الاصطلاحي لهما أي شخصية الحاوي الموجودة في كتب الأدب والأساطير والفلكولور عبر الثقافات المختلفة. (المترجم)

خرجوا يومها. ولكن بعد ذلك بأكثر قليلًا من عام، قال لي صحافي صديقي، في محادثة عبر سكايب: «يا دكتور، الناس بتسمعه، مش بس الفلاحين، ولكن كل أنواع الناس في المدن، ملايين منهم، الحاجات اللي بيتوقعها بتحصل!» بالطبع لا يعني ذلك أن عكاشة قد استطاع أن يجعل من نفسه قوة سياسية حقيقية، وإنما هو فقط يملك أتباعًا ومريدين، مع أجندة سياسية بسيطة وواقعية قابلة للتنفيذ في مجال مليء بالتطاحن السياسي. (كما فعل هتلر). ربما إذا انفض هؤلاء الأتباع عنه، يكون زواله سريعًا وخاطفًا بقدر ما كان بزوغه وازدهاره. إن المرء ليتشكك من إمكانية استمرار سلطته خارج «فراغ» وضعية المجاز[١]. ولكنه علىٰ أية حال مثال لحالة يمكنها أن توجد بوفرة خلال الثورات، أو غيرها من الفترات التي يكون فيها التشويش السوسيو-سياسي في درجته القصوىٰ،والتي يتاح للحاوي فيها أن يحظىٰ بقوة حقيقية.

إن الأفكار التي ناقشناها في هذه الدراسة تمكننا من وضع هذه الشخصية في دائرة الاهتمام. ولكن من ناحية أخرىٰ، نحن نجابه مشكلة بصرية في التعامل مع الحاوي؛ لإنه ليس بميسورنا أن نراه (تحليليا أتحدث)[٢].إن بزوغ الحاوي السياسي، ليس بأي حال

(١) هورفاث وتوماسين (٢٠٠٨) يذهبان إلىٰ إمكانية استمرار الحاوي السياسي في التأثير واكتسابه مزيدا من الأتباع، بسبب الانخداع بقدراته علىٰ المحاكاة، انطلاقا من إعادة تأويلهما لأعمال رينه جيرارد، وغريغوري باتيسون.

(٢) المقصود: أنه ليس بمكنتنا أن نتوقع ظهور شخصية الحاوي بطريقة تجريبية)إمبريقية) =

من الأحوال محض نتاج لتوفر عوامل من قبيل: الكوارث الاقتصادية، أو الصراع السياسي بين المنظمات الرسمية، أو بين الحركات المجتمعية الأيديولوجية والمنظمة؛ هذه العوامل كل علىٰ حدة أو مجتمعة، لا تكفي لتفسير بزوغ «عكاشة» ما، تفسيرا جيدا. إن الحاوي ثاوٍ في «الفراغ الثوري[1]»، وما الثورة إلا «فراغ»، ولكنه للمفارقة فراغ حامل بمختلف الإمكانات: المدمرة أو الخلاقة.

---

= بحيث نستطيع أن نمسك بوضوح بأسباب معينة يترتب علىٰ وجودها ظهور شخصية الحاوي. (المترجم)

(١) Revolutionary void: ترجمناها بالفراغ الثوري؛ لأن وسم فراغ متساوق مع طبيعة وضعية المجاز: الانتقالية، البينية، والخلو من المعايير الحاكمة. (المترجم)

# تعقيب المترجم

## (١)

تفتح لنا هذه الدراسة أفقًا أرحب لفهم الظواهر السياسية عامة والثورة خاصة، متجاوزة للمقاربات الكلاسيكية التي تقارب الثورة من منظار سياسي أو اجتماعي؛ فبعيدًا عن النظر في طبيعة الأسباب التي تؤدي إلىٰ وقوع الثورة في مجتمع ما، اقتصادية كانت أو سياسية، وبعيدًا عن فهم الصيرورة الثورية بمنطق سياسي محض يركز علىٰ أنماط التفاعل بين أطراف سياسية مختلفة من حكومات لأحزاب سياسية وقوىٰ سياسية خارجية، أخذ أرمبرست بأيدينا نحو مقاربة تكاد تكون مهجورة بالرغم من طرافتها وما تتوافر عليه من إمكانات تفسيرية، إنها المقاربة الأنثروبولوجية للثورة، حيث يتم النظر إلىٰ الثورة بوصفها طقس عبور، يخوضه المجتمع برمته.

ولكي يبرهن أرمبرست علىٰ قدرات هذه المقاربة التفسيرية، توسل بها لفهم ظاهرة توفيق عكاشة، مبينا كونها تساعدنا أكثر من المقاربات الأخرىٰ في فهم هذه الظاهرة. إذن هدف أرمبرست من

الدراسة كان مركبا؛ تفسير ظاهرة عكاشة أولا، ثم من خلال هذا التفسير يكشف عن أهمية المقاربة الأنثروبولوجية للثورة.

وعليه فقد كان السؤال الذي جعله أرمبرست نصب عينيه هو: لماذا بزغ عكاشة واشتهر فجأة بعد ثورة ٢٥ يناير ليتحول من شخص مغمور إلىٰ شخص بالغ التأثير في المجال السياسي المصري؟ وليجيب عن هذا السؤال تجاوز كلا من المقاربة السياسية التي تزعم أن سبب بزوغ عكاشة هو دعم المؤسسة العسكرية له. والمقاربة السوسيولوجية التي تجادل بأن بزوغ عكاشة موكول لنمط الخطاب الذي يقدمه؛ فهو خطاب ملائم تماما للفلاحين وغير المتعلمين وللطبقة المتوسطة الدنيا، ولما كان هؤلاء يشكلون نسبة كبيرة من المجتمع المصري، ترتب عليه اشتهاره وبزوغه.

بحسب أرمبرست فإنه بالرغم من أهمية تينك المقاربتين، إلا أنهما لا يقدمان تفسيرا جيدا لظاهرة عكاشة، فالمقاربة السياسية تتعرض لإحراج كبير عندما نطرح عليها هذا الاستشكال: المؤسسة العسكرية لم تكن تختص السيد عكاشة بالدعم، وإنما كانت تقدم الدعم لمن سواه من الإعلاميين والسياسيين، لكن أحدا منهم لم يبلغ ما بلغه عكاشة من اشتهار وتأثير. وعليه فمجرد الدعم الذي تلقاه عكاشة من المؤسسة العسكرية أو من أي طرف سياسي آخر، ليس هو إذن السبب الرئيسي لبزوغه. نفس الإحراج تتعرض له المقاربة السوسيولوجية عندما نواجهها بالحقيقة التالية: جمهور

عكاشة لم يقتصر علىٰ الأميين وأفراد الطبقة الوسطىٰ، وإنما هو متغلغل في مختلف طبقات المجتمع، إن جمهور عكاشة يتضمن بلا شك حاملي شهادات علمية مرموقة وبرجوازيين.

بعد تجاوز أرمبرست للمقاربتين سوف يجادل في المقابل عن نجاعة المقاربة الأنثروبولوجية في فهم ظاهرة عكاشة. إن أرمبرست يرىٰ أن بزوغ عكاشة يرجع إلىٰ كونه حاويًا قد ظهر في قلب وضعية مجاز؛ إذ ثمة تناغم كبير بين الحاوي ووضعية المجاز، فالثانية توفر له بيئة مواتية تمامًا كيما يبزغ ويشتهر.

## (٢)

في البدء سعىٰ أرمبرست لبيان حال عكاشة قبل الثورة، وكيف كان شخصا هملا ومغمور تماما، حتىٰ في نطاق عمله الإعلامي الضيق، فهو «أشبه بسمكة صغيرة وسط عدد كبير من الحيتان». ولكن بعد الثورة بدأ عكاشة يشتهر، وبحسب أرمبرست فإن مظاهرة العباسية كانت بمثابة لحظة تدشين لعكاشة جديد تماما، عكاشة المؤثر وليس المغمور. والحال أن مظاهرة العباسية تلك قد انتبه لها القليل؛ فالأغلبية نظرت إليها بوصفها حدثا عابرا نظمه من فاتهم قطار الثورة. بينما أرمبرست قد وجد فيها آية علىٰ بزوغ عكاشة؛ إن حدث العباسية شكلا ومضمونا هو محض صنيعة لعكاشة وبرنامجه.

منذ لحظة العباسية بدأ نجم عكاشة يبزغ أكثر حتىٰ صار ظاهرة، فكيف نفسر هذه الظاهرة؟ إنهما المفهومان الأنثروبولوجيان الرئيسيان: وضعية المجاز والحاوي. بحسب أرمبرست فإن أزمة المجاز قد تشكلت في المجتمع المصري بعد سقوط نظام مبارك لأن وضعية المجاز قد طالت عن الفترة الطبيعية، بسبب عجز الثوار عن بناء نظام سوسيو-سياسي جديد ليحل محل نظام مبارك. وقد تعلمنا مع فيكتور تيرنر أن وضعية المجاز تتيح الفرصة لكل

الإمكانات الطيبة أو الشريرة كيما تظهر. ولكن لا أحد تتاح له هذه الفرصة أكثر من الحاوي. إن وضعية المجاز هي بيت الحاوي ومأواه في واقع الأمر، إنها طريقه الملكي للبزوغ والاشتهار.

هذا ولما كان فهم فترة الانتقال التي خلفت ثورة يناير كوضعية مجاز متأزمة أمرا ميسورا، فإن أرمبرست قد انشغل أكثر ببيان كيف نفهم عكاشة كحاوٍ. والحق أن طرافة مقاربة أرمبرست تكمن عند هذه النقطة تحديدا: استعارته لمفهوم شخصيةالحاوي من حقل الأنثروبولوجيا وتنزيله علىٰ عكاشة. إن السمة الرئيسية لشخصية الحاوي والتي عمل أرمبرست علىٰ إظهارها في شخصية عكاشة، هي سمة الازدواج؛ الحاوي شخص مثير للضحك ولكنه مثير للرهبة أيضًا، إنه قادر علىٰ إضحاكنا نعم ولكن بوسعه أيضًا أن يؤذينا. هو شخص سخيف بالفعل ولكنه أيضًا خطير.

يعمد أرمبرست إلىٰ برنامج عكاشة بوصفه الحيز الذي تتمظهر فيه هذه السمة، برنامج عكاشة هنا بوصفه عرضًا يقدمه الحاوي. بحسب أرمبرست فإن البرنامج يظهر لنا بجلاء الجانب المضحك في شخصية عكاشة: أسلوبه، تعبيراته الجسدية، مضامين خطابه التي تحض علىٰ السخرية، ... إلخ. ولكنه لا يظهر الجانب الآخر منها، الجانب الخطير،بنفس القدر من الجلاء، وهنا بالتحديد يكمن خطر الحاوي؛ أننا لا نرىٰ وجهه الخطير بوضوح مبكرا، لقد تعامل الجميع مع عكاشة بوصفه مهرجًا وفقط، كان من اليسير علىٰ كل متابع له أن يرىٰ فيه هذا الجانب المضحك، ولكن لا أحد تنبه

للجانب الآخر من شخصيته، الجانب الذي أكسبه هذا القدر الكبير من التأثير، حتىٰ كاد يكون المتحدث الرسمي باسم الثورة المضادة. لقد تم التعامل مع عكاشة بوصفه هزليا لا بوصفه حاويًا. لذا بعدما حلل أرمبرست الجانب الهزلي من شخصية عكاشة، كان عليه أن يحلل الجانب الخطير منها، استقصىٰ أرمبرست عن وجه عكاشة/ الحاوي الخطير في عرضه التليفزيوني، مبينًا آثار هذا الوجه علىٰ الواقع المصري. لقد اختار أرمبرست عددا من القضايا التي تُبرز هذا الوجه ومنها: تعامل عكاشة مع توماس فريدمان، حملة عكاشة علىٰ منظمات المجتمع المدني، قضية المرأة ذات الصدرية الزرقاء، وقضية قانون المضاجعة. وكباحث ميداني اهتم أرمبرست باستقصاء آثار وجه عكاشة الخطير في أحاديث الناس المباشرة وفي همهماتهم وصدىٰ مكنونهم عن عكاشة.

ببيان الوجهين المضحك والخطير اكتملت صورة الحاوي في شخص عكاشة، وببيان طبيعة أزمة المجاز التي غرق المجتمع المصري فيها يمكننا الجواب عن سؤال: لماذا اشتهر عكاشة وبلغ هذا القدر من التأثير؟

## (٣)

والحق، أنا صيرورة الأحداث في مصر تبرهن علىٰ وجاهة مقاربة أرمبرست الأنثروبولوجية ونجاعتها في تفسير ظاهرة عكاشة؛ فلنسأل بداية هذا السؤال: ما هو حال عكاشة بعد انقلاب مايو **٢٠١٣**؟ هل يحظىٰ بنفس القدر من الحضور والتأثير الذي كان يحظىٰ به في الفترة الزمنية الممتدة منذ سقوط مبارك وحتىٰ الانقلاب؟ بالطبع لا، أي مراقب بوسعه أن يلاحظ خفوت نجم عكاشة أو اضمحلاله تماما فيما بعد الانقلاب. لماذا إذن؟ هنا تحديدا يمكننا أنا نزيد من إحراج المقاربتين السوسيولوجية والسياسية؛ بالنسبة للمقاربة السوسيولوجية فإن أعداد الأميين والمنتمين للطبقة الوسطىٰ الدنيا لم تتضاءل فجأة بعد الانقلاب، بحيث يصير عكاشة وحده بلا جمهور، فيخبو ويعود لحياة خمول الذكر والانغمار. وبالنسبة للمقاربة السياسية التي تجادل بأن عكاشة كان ذيلًا للمجلس العسكري، فإن العسكر أنفسهم هم من استحوذوا تمامًا علىٰ السلطة، وحبل عكاشة ما زال علىٰ غاربه، إن الجنرالات لم يضيقوا علىٰ عكاشة بعد الانقلاب، فمازال بوسعه أن يقدم لهم خدماته، فلم إذن خبا وانغمر مرة ثانية؟

هنا تظهر دقة المقاربة الأنثروبولوجية التي انتهجها أرمبرست: بحسب هذه المقاربة فإن بزوغ عكاشة عبارة عن محصلة شرطين: كونه حاويا وكونه وجد في وضعية مجاز (وضعية مجاز + حاوٍ = بزوغ الحاوي واشتهاره) فماذا حدث بعد الانقلاب؟ بالنسبة للشرط الأول فعكاشة لا يزال عكاشة، بمعنىٰ أنه لم يتعرض لطفرة مفاجأة أزالت عنه سمات شخصية الحاوي. ولكن ما حدث في واقع الأمر هو ضياع الشرط الثاني، كيف ذلك؟ منذ سقوط نظام مبارك وحتىٰ الانقلاب والمجتمع المصري في وضعية مجاز غارقا في الـlimbo. والحال أن السيد محمد مرسي لم يستطع أن يضع حدًا لوضعية المجاز هذه خلال سنة حكمه، وإنما ظلت حاضرة فيما يشبه أحوال جمهورية فايمار بعد الحرب العالمية الأولىٰ، وهي الأحوال التي كانت سببًا في بزوغ حاو من نوعية أشد خطرًا من عكاشة، إنه هتلر.

ولكن بوصول الجنرال السيسي للحكم تم وضع نهاية حاسمة لوضعية المجاز هذه. فبحسب المقاربة الأنثروبولوجية تتم الأمور في الثورة الناجحة علىٰ النحو التالي:

الثورة = إسقاط نظام سوسيو-سياسي ⬅ وضعية مجاز ⬅ نظام سوسيو-سياسي جديد.

لكن في الحالة المصرية ما جرىٰ هو التالي:

الثورة = إسقاط نظام سوسيو-سياسي ⬅ وضعية مجاز طويلة ⬅ أزمة مجاز ⬅ عودة النظام السوسيو-سياسي نفسه.

ما نجح في الحالة المصرية هو الثورة المضادة وليس الثورة في واقع الأمر. فبفضل الانقلاب تم إعادة بناء النظام القديم مرة ثانية بدلًا من بناء نظام جديد.

ما يعنينا في هذا السياق، أن الانقلاب استطاع أن ينهي وضعية المجاز، ومن ثم حرم عكاشة/الحاوي من البيئة اللازمة لبزوغه وازدهاره. إذن من بعد الانقلاب ظل عكاشة حاويا نعم ولكنه أضحىٰ بدون وضعية مجاز، فخبا نجمه وعاد لما كان عليه قبل الثورة «مجرد سمكة صغيرة بين الحيتان الكبار».

إن خروج المجتمع المصري من وضعية المجاز (بفضل الانقلاب) حرم الحاوي من جمهوره كيف ذلك؟ قلنا أن وضعية المجاز تربك الناس وتشوش عليهم، ومن ثم هم يتوقون لإنهائها بأي سبيل، وتحت ضغط هذا التوق يتوجهون للحاوي الذي يجذب انتباههم بقدراته علىٰ المحاكاة وأدائه الهزلي والمثير. إن أولئك الذين يعيشون في وضعية مجاز مؤهلون نفسيا لتقبل بل احتضان شخصية الحاوي (عكاشة، هتلر، القذافي..)، بسبب قدر التشويش والأرق الذي تسببه لهم هذه الوضعية. ولكن بعد وصول الجنرال السيسي للسلطة، تم إنهاء وضعية المجاز تمامًا، ومن ثم لم يعودوا تحت ضغط هذا التوق الذي دفعهم للالتفاف حول الحاوي.

ومن هذه النقطة تحديدا يمكننا أن نفهم (ولو جزئيًا) سبب انجذاب الناس للجنرال السيسي، إذ أنهم قد اعتقدوا فيه أنه وحده القادر علىٰ إخراجهم من وضعية المجاز هذه. ويفسر أيضًا ذلك

(ولو جزئيًا) سبب سخطهم علىٰ السيد محمد مرسي، فهو لم يستطع بحال أن يضع حدا لوضعية المجاز، ومن ثم ظلوا يعانون طوال سنة حكمة من نفس التشويش الذي عانوا منه منذ لحظة الثورة. إن وصول مرسي للسلطة إذن لم ينقذهم من كربهم، وبالتالي سخطوا عليه.

وقبل وبعد، فقد قدم أرمبرست دراسة أكاديمية رصينة عن ظاهرة عكاشة، في الوقت الذي لم ينتج لنا العقل المصري إلا ركاما من السخرية والجدل العقيم حول الرجل. فلا يسعنا إذن في نهاية المطاف إلا أن نعترف لأرمبرست بجدته البحثية ومثابرته. ونشكره علىٰ ما فتحته لنا دراسته هذه من آفاق معرفية، ما كان لنا أن نبلغها إلا بشق الأنفس.

# المـراجـع

١- عبد السميع، عمرو، ٢٠١٢، وإعلاماه، الأهرام، ٢٤ فبراير، علىٰ الرابط:

http://digital.ahram.org.eg/articles.aspx?Seria1878317&eid11335=

٢-عبد العظيم، حازم، ٢٠١٢، جاءنا البيان التالي، صورة علىٰ صفحة الفيسبوك الخاصة بحازم عبد العظيم، علىٰ الرابط:

https://www.facebook.com/photo.php?fbid10151091309960447&seta.10150283835485447050046 4.784000446&type=1&theater).

٣- أبو الغيط، محمد، ٢٠١١، الفقراء أولا، موقع جدلية، علىٰ الرابط:

http://gedarea.blogspot.com06/2011/normal-0-false-false-false.html

4- Abu-Lughod, Lila. 2004. Dramas of Nationhood: The Politics of Television in Egypt Chicago: University of Chicago Press.

5- Andreas, Joel. 2007. The Structure of Charismatic Mobilization: A Case Study of Rebellion during the Chinese Cultural Revolution. American Sociological Review 72, 3-434 58.

٦- عاصفة غضب من فتوىٰ مغربية تبيح للرجل جماع زوجته الميتة، منشور في ٢١ فبراير علىٰ الرابط:

MBC.net http://tinyurl.com/d9u2toc

7- Babcock-Abrahams, Barbara. 1975. ATolerated Margin of Mess: The Trickster and His Tales Reconsidered. Journal of the Folklore Institute 11, 3: 147-86.

8- Bourdieu, Pierre. 1977 [1972]. Outlineofa Theory of Practice. Richard Nice, trans. Cambridge: Cambridge University Press.

9- Caton, Steven. 1999. Anger Be Now Thy Song: The Anthropology of an Event. Princeton Institute for Advanced Study, Occasional Paper no. 5.

At: http://www.sss.ias.edu files/papers/paperfive.pdf

10- Checker, Melissa, David Vine, and Alaka Wali. 2010. from the Public Anthropology Review Editors: A Sea Change in Anthropology? Public Anthropology Reviews American Anthropologist n.s. 112, 1: 5-6.

11- Dresch, Paul and Wendy James. 2000. Fieldwork and the Passage of Time. In P. Dresch and W. James, eds., Anthropologists In a Wider World: Essays on Field Research Oxford: Berghahn, 1-25.

12- Edelman, Marc. 2001. Social Movements: Changing Paradigms and Forms of Politics, Annual Review of Anthropology 30: 285-317.

13- Egypt's 'Plans for Farewell Intercourse Law so Husbands Can Have Sex with DEAD Wives' Branded Completely False. 2012. Daily Mail. Posted 29 May to correct a story posted on 26 Apr. At: http://www.dailymail.co.uk/news/article-2135434 Egypts-plans-farewell-intercourse-law-husbands-sex-DEAD-wives-branded-completely false.html

14- Fahmy, Khalid. 2012. The Truth about Fayza. Egypt Independent, 26 Feb. At:

http:// www.egyptindependent.com/opinion/truth-about-fayza

15- Fernández, Belén. 2011. The Imperial Messenger: Thomas Friedman at Work. London: Verso.

16- Field, Nathan and Ahmad Hamam. 2009. Salafi Satellite TV in Egypt. Arab Media and Society 8. At: http://www.arabmediasociety.com/?article=712

17- Foran, John, ed. 1997. Theorizing Revolutions. New York: Routledge.

18- Ghannam, Farha. 2011. Mobility, Liminality, and Embodiment in Urban Egypt. American Ethnologist 38, 4: 790-800.

19- Giddens, Anthony. 1984. The Constitution of Society: Outline of the Theory of Structuration Cambridge: Polity Press.

20- Gupta, Akhil and James Ferguson. 1997. Discipline and Practice: The Field' as Site Method, and Location in Anthropology. In A. Gupta and J. Ferguson, eds., Anthropological Locations: Boundaries and Grounds of a Field Science. Berkeley: University of California Press, 2-46

21- Hägglund, Helena and Sam Carlshamre. 2012.

Necrophilia Law: How Western Media Savors Islamophobia. Egypt Independent, 9 May. At: http://www.egyptindependent com/opinion/necrophilia-law-how-western-media-savors-islamophobia

٢٢- حسن، رضوىٰ، ٢٠١٢، عكاشة يحرض ضباط الجيش بطريقة غير مباشرة علىٰ المجلس العسكري. أخبار مستعجلة، ٢٢ يوليو، علىٰ الرابط:

http://www.mesta3gelnews.com/post.php?id=2162.

٢٣- نافعة، حسن، توريطة في موقعة الجمل، ٢٠١٢ المصري اليوم، ٢٧ فبراير، علىٰ الرابط:

http://www.almasryalyoum.com/node/682646

24- Hirschkind, Charles. 2006. The Ethical Soundscape: Cassette Sermons and Islamic Counterpublics. New York: Columbia University Press.

25- Horvath, Agnes and Bjørn Thomassen. 2008. Mimetic Errors in Liminal Schismogenesison the Political Anthropology of the Trickster. International Political Anthropology1.1: 3-24.

26- Koepping, Klaus-Peter. 1985. Absurdity and Hidden Truth: Cunning Intelligence and Grotesque

Body Images as Manifestations of the Trickster. History of Religions 24,3: 191-214.

27- Marzolph, Ulrich. 2005. Juha in the Arabian Nights. Journal of Arabic Literature 36, 3: 22-311

28- McAdam, Douglas, Sidney Tarrow, and Charles Tilly. 2001. Dynamics of Contention, Cambridge: Cambridge University Press.

29- Moustafa, Tamir. 2007. The Struggle for Constitutional Power: Law, Politics, and Economic Development in Egypt. Cambridge: Cambridge University Press.

30- Musaji, Sheila. 2012. about that Necrophilia Law. American Muslim, 27 Apr. At: http// theamericanmuslim.org/tam.php//eatures/articles/about-that-egyptian- necrophilia-law.

31-Nash, June, ed. 2004. Social Movements: An Anthropological Reader. Oxford Blackwell.

32- Norkus, Zenonas. 2007. Troubles with Mechanisms: Problems of the 'Mechanistic Turn' in Historical Sociology and Social History. Journal of the

Philosophy of History 1: 160-200.

33- Ortner, Sherry. 1984. Theory in Anthropology since the Sixties. Comparative Studies in Society and History 26, 1: 126-66.

34- Pelton, Robert. 1980. The Trickster in West Africa: A Study of Mythic Irony and Sacred Delight. Berkeley: University of California Press.

35- Peterson, Mark. 2011. Connected in Cairo: Growing Up Cosmopolitan in the Modern Middle East. Bloomington: Indiana University Press.

36- Radin, Paul. 1956. The Trickster: A Study in American Indian Mythology; with a Commentary by Karl Kerényi and Carl G. Jung. New York: Philosophical Library.

37- Rakha, Youssef. 2012. Tawfik Okasha and the Amazingly Appalling Atrociousness of the Fellahin. Al-Ahram Online, Jan. At:

http://english.ahram.org.eg/NewsContentP/31509/4O-pinion/Tawfik-Okasha-and-the-amazingly-appalling-atrociou.aspx

38- Ryzova, Lucie. 2011. The Battle of Muhammad Mahmud Street: Teargas, Hair Gel and Tramadol. Jadaliyya, 28 Nov. At:

http://www.jadaliyya.com/pages/index/3312/thebattle of-muhammad-mahmud-street_teargas-hair-

39- Ryzova, Lucie. 2013. The Age of the Efendiyya: Passages to Modernity in National Colonial Egypt. Oxford: Oxford University Press.

40- Sakr, Naomi. 2007. Arab Television Today. London: I. B. Tauris40.

41- Sakr, Naomi. 2013. Transformations in Egyptian Journalism. London: I. B. Tauris.41.

42- Selbin, Eric. 1997. Revolution in the Real World: Bringing Agency Back In. In John Foran, ed., Theorizing Revolutions. London: Routledge, 118-32.

43- Sewell, William. 2005. Logics of History: Social Theory and Social Transformation Chicago: University of Chicago Press.

44- Starrett, Gregory. 2010. The Varieties of Secular Experience. Comparative Studies in Society and

History 52, 3: 626-51.

45- Szakolczai, Arpad. 2009. Liminality and Experience: Structuring Transitory Situations and Transformative Events. International Political Anthropology 2, 1: 141-72.

٤٦- تعريف بفضيلة الشيخ محمد حسان، ٢٠١٢، علىٰ الرابط:
http://www.mohamedhassan.org/ta3reef%20belshiekh.

٤٧- توفيق عكاشة إبراهيم عكاشة، ٢٠١٢، سيرة عكاشة الذاتية، علىٰ موقع حزب مصر القومي، علىٰ الرابط:
http://egypt-national.com/news/index.php?option = com_content&view article&id = 15%3A2011-05-22-19-12-39&catid = 2%3A2010-12-09-22-47-00&Item id = 4

48- Thomassen, Bjørn. 2009. The Uses and Meaning of Liminality. International Political Anthropology 2, 1: 5-27.

49- Thomassen, Bjørn. 2012. Notes towards an Anthropology of Political Revolutions Comparative Studies in Society and History 54, 3: 679-706.

50- Tilly, Charles. 2006. Regimes and Repertoires. Chicago: University of Chicago Press.

51- Tilly, Charles and Robert Goodin. 2006. It Depends. In R. Goodin and C. Tilly, eds., The Oxford Handbook of Contextual Political Analysis. Oxford: Oxford University Press. 3-34.

52- Turner, Victor. 1967. The Forest of Symbols: Aspects of Ndembu Ritual. Ithaca: Cornell University Press.

53- Turner, Victor. 1968. Myth and Symbol. In David Sills, ed., International Encyclopedia of the Social Sciences, Volume 10. New York: Macmillan, 576-82.

54- Turner, Victor. 1969. The Ritual Process: Structure and Anti-Structure. Cornell: Cornell University Press.

55- Turner, Victor. 1979. Frame, Flow and Reflection: Ritual and Drama as Public Liminality Japanese Journal of Religious Studies 6, 4: 465-99.

56- Turner, Victor. 1980. Dramas and Stories about Them. Critical Inquiry 7, 1: 141-68656.

57- Turner, Victor. 1982. from Ritual to Theatre. New York: PAJ Publications.

58- Turner, Victor. 1986. Dewey, Dilthey, and Drama: An Essay in the Anthropology of Experience. In Victor Turner and Edward Bruner, eds., The Anthropology of Experience Chicago: University of Illinois Press, 33-44.

59- Turner, Victor. 1988. The Anthropology of Performance. New York: PAJ Publications.

٦٠- الأغنية الرسمية للدكتور توفيق عكاشة: أنا فِل، ٢٠١١، على الرابط:

http://www.youtube.com/watch?v=-2y_PBpZDYc

61- Van Gennep, Arnold. 2004. [1909]. The Rites of Passage. London: Routledge.

62- Weber, Donald. 1995. From Limen to Border: A Meditation on the Legacy of Victor Turner for American Cultural Studies. American Quarterly 47,3 (Sept.): 525-36.

63- Weber, Max. 1947. The Theory of Economic and Social Organization. A. M. Henderson and Talcott Parsons, trans. Oxford: Oxford University Press.

64- Wickham-Crowley, Timothy. 1997. Structural

Theories of Revolution. In John Foran ed. Theorizing Revolutions. London: Routledge, 36-70.

65- Worsley, Peter. 1968. The Trumpet Shall Sound: A Study of Cargo Cults in Melanesia New York: Schocken.

66- Wynn, Lisa. 2007. Pyramids and Nightclubs: A Travel Ethnography of Arab and Western Imaginations of Egypt. Austin: University of Texas Press.



## لماذا هذا الكتاب؟

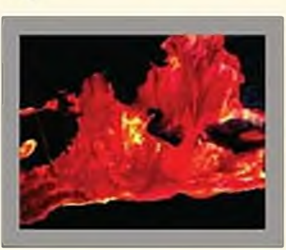
لأن الأنثروبولوجيا (الأناسة أو علم الإنسان) تكاد تكون حقلاً مهملاً في السياق الأكاديمي العربي، بالرغم من أهميتها في تفسير الظواهر الاجتماعية والإنسانية بعامة.

ولأن بروز ظواهر مجتمعية فاعلة في مسار التغيرات التي تموج في المنطقة يقتضي تسليط الضوء عليها دراسة وفحصًا وتحليلاً، لتجلية نقاط الفاعلية والتأثير والتأثر السوسيو-سياسي.

يقدم مركز نماء هذا الكتاب، وهو دراسة أنثروبولوجية ميدانية أنجزها البروفيسور «والتر أرميرسته» خلال سنتين قضاهما في مصر. اختار «أرميرسته» توفيق عكاشة كموضوع لدراسته، حيث نظر إلى بزوغه واشتهاره اللافت للنظر في المشهد السياسي المصري بعد ثورة الخامس والعشرين من يناير كظاهرة تتطلب التفسير.

لقد كان السؤال الذي سعى «أرميرسته» للجواب عنه هو: لماذا يشتهر شخص مثل عكاشة؛ حتى يمتلك هذا القدر من التأثير في المجال السياسي؟ يعرض «أرميرسته» مقاربتين للجواب على هذا السؤال: المقاربة السوسيولوجية والمقاربة السياسية، مستحضرًا المقاربة الأنثروبولوجية كبديل أكثر نجاعة في تفسير الظاهرة من تينك المقاربتين، مرتكزًا فيها على عدد من المفاهيم الأنثروبولوجية مثل: وضعية المجاز، أزمة المجاز، وضعية ضد البنية، والحاوي.

وباتت ترجمة هذه الدراسة في واقع الأمر ملحة لتقديم جواب علمي على سؤال عكاشة، بعيدًا عن ركام الأحاديث الساخرة وغير الجادة الذي تراكم حول الرجل، ولفتح أفق معرفي جديد للقارئ العربي، يتجاوز موضوع عكاشة؛ ألا وهو أفق المعرفة الأنثروبولوجية.



ترجمـــات (1)


### المؤلف:

**والتر أرميرســت**

- أستاذ مساعد لدراسات الشرق الأوسط الحديث بكلية الدراسات الشرقية بجامعة أكسفورد بالمملكة المتحدة.
- حاصل على ماجستير في دراسات الشرق الأوسط ثم ماجستير ودكتوراه في الأنثروبولوجيا، من جامعة متشيجن.
- تنصب اهتماماته البحثية على موضوع الثقافة الجماهيرية ووسائل الإعلام في الشرق الأوسط الجديد.

### من مساهماته العلمية:

- أصحاب السمت الإسلامي والأماكن البرجوازية
- تاريخ وسائل الإعلام الجماهيرية في الدول العربية
- السينما والتلفزيون في العالم العربي
- صعود وهبوط الفكر القومي في السينما المصرية (٢٠٠٦).

### المترجم:

**طـــارق عثمـــان**

- باحث وكاتب مصري.
- حاصل على شهادة بكالريوس في الصيدلة من جامعة القاهرة في العام (٢٠٠٦).
- تتوزع اهتماماته البحثية على الدراسات الفلسفية والسياسية والسوسيولوجية.
- له عدد من الأوراق البحثية والمقالات المنشورة.

### من مساهماته العلمية:

- الحالة الليبرالية في مصر - المركز العربي للدراسات الإنسانية (٢٠١٣).

البريد الإليكتروني
Dr.tareq.osman@gmail.com



الثمن ٤ دولارات
أو ما يعادلها







مركز نماء للبحوث والدراسات
Namaa Center for Research and Studies

info@nama-center.com